بهاء طاهر

ذهبت إلى شلال

مجموعة قصصية



دار الشروق

ذهبت إلى شلال

«بهاء طاهر كاتب واضح مسيطر على مادته وأدواته . جديد في رؤيته ومتفرد في نوع أدائه. الصدق هو النبرة الأولى التي تصافحك في سطوره، والتوازن الموضوعي هو العلامة الواضحة التي يقيم عليها بناء نصوصه».

علاء الديب

«كتابات بهاء طاهر من هذه الكتابات الهامسة التي تنساب إليك في هدوء آسر بليغ، وتربت على مشاعرك في نعومة ورقة مهما بلغت حدتها الدرامية وعمقها الدلالي. إنه قصاص شاعر متصوف تفيض شاعريته وصوفيته برؤية إنسانية حارة».

محمود أمين العالم

«لا يقنع بهاء طاهر. لا يريد أن يقنع. تذهب معه إلى مجموعته «ذهبت إلى شلال» طلبًا للقصة، فإذا القصة باقة من الشعر الجميل».

علي الراعي

• • •

بهاء طاهر من مواليد ١٩٣٥. أحد أهم الروائيين العرب. نال جائزة مبارك للآداب عام ٢٠٠٩، وقبلها جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨، كما حصلت روايته «واحة الغروب» على جائزة البوكر العربية في دورتها الأولى عام ٢٠٠٨، صدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: «خالتي صفية والدير» عام ١٩٩١ و«الحب في المنفى» عام ١٩٩٥. وخمس مجموعات قصصية بالإضافة إلى دراسات أدبية ونقدية وترجمات.

الغلاف: وليد طاهر



دار الشروق
www.shorouk.com

بهاء طاهر

ذهبت إلى شلال

مجموعة قصصية

دار الشروق

المحتويات

الإهداء

إلى الدكتور على الراعى..

وهـو بـاق معنـا بالكلمـات.

بهاء طاهر

أسطورة حب



عند الغدير همسُ النسيم فى الأشجار، تُصفّقُ أفرُعها المهتزّةُ العالية فتُفرخُ من أوراقها الخضراء طيورًا تتناثر فى السماء زينة ملوّنة وأنا على الشطّ ألعب.

يهبط من السماء ملاك صغير يجلس قبالتى. يغمس فى الماء قدميه البلّلوريتين وينتفخ بالهواء إزاره القصير شراعًا أبيض، أبتسم له ويبتسم لى. أسأله من بعيد: أنت صديقى؟ فيومئ لى برأسه وتتموج هالة شعره الذهبى. أمشى فى الماء نحوه لكنه يفرد جناحيه قبل أن أدركه وينشد أغنية لا أفهمها ثم يطير فى السماء. يلوّح لى من بعيد بينما يخفت النشيد ويلقى جناحاه على النبع ظلاً رجراجًا ثم يذوب فى الشمس.

أرجع لأجوس وسط الأشجار، أقطف الثمار وآكلها. أستلقى على ظهرى فيتخلّلنى ندى العشب ورائحة الخضرة. أزر عينى فتتفتت الشمس على أهدابى مزقًا زرقاء تموج فيها الصفرة المذهبة. أفرح فى رحم الأرض.

يحجب الشمس ظل. أرفع رأسى فأرى الصياد العجوز يحمل سنّارة وشبكة. وفى وجهه الأسمر تجاعيد بسمات متوازية. شعره

الأبيض عش ممهد. أشار بالسنارة نحو الغدير وقال: اتبعنى. رددها الصدى اتبعنى.. بعنى.. عنى.. نى..

قمت خلفه. قال لى: فى البدء سنذهب إلى الكوخ. سبحت فى الماء ورأيته يسير بحذائى على الشط. دخلنا الكوخ معًا. قالت ابنته: كنت أنتظرك، ونظرت نحوى. كانت تلبس ثوبًا قصيرًا ورديًا مفتوح الصدر. ينسدل شعرها الأسود الفاحم على الجانبين وبينهما يشع وجهها الجميل فجرا. على ذراعيها البيضاوين شعيرات دقيقة تلمع فى الشمس. وعلى ساقيها أيضا. فى وجهها غمازتان تبتسمان تحت عينيها العسليتين الواسعتين.

قال الصياد: تحابّا، وبعدها نذهب كى نصطاد. وحين قالها اختفى.

مددت للجميلة يدى فمدت يدها. أحببتها وأحبتنى. قبّلتها وقبّلتنى.

جلسنا مستندين إلى جذع شجرة. أحطت بذراعى كتفها. مالت برأسها على صدرى. أحببت أن أمس بشفتىّ ذراعها أحس النعومة البضّة ودغدغة الشعيرات البكر.

سالت على يدى دموع سخمة. حين رفعت رأسى قالت: أنقذنى. وظلت قطرة دمع معلقة فى غمازتها تريد أن تلحق بدموع فوق شفتيها. مددت لسانى ورشفت الدمعة من خدها وقلت: من أى شىء أنقذك؟

قالت: هذا الصياد. ليس صيادًا وليس أبى.

من صبوة النشوة إلى قاع الحيرة.

قلت: من هو؟ فقالت إنه الجنى الذى خطفها.

قلت لها: سأحاربه وأغلبه.

قالت: ولكنه ساحر، فقلت: أعرف ملاكا سيساعدنى.

رفرف فى الكوخ جناحان فخفنا والتصقت بى.

ظهر ملاك صغير على مقعد حجرى أمامنا. وتدلت قدماه الصغيرتان البيضاوان لم تلامسا الأرض.

ابتسمت وقلت: شكرا لأنك جئت.

لم تبتسم هى وظلت ترتعش فى حضنى. قالت لى بهمس خائف: انظر إلى وجهه.

حين دقّقت النظر وجدت فوق شفتى الملاك الرفيعتين شاربًا أحمر يصعد حتى عينيه الطفليتين.

قال لى: هل عرفتنى؟ ونفخ نارًا فى وجهى.

قلت: لست أنت صديقى. سيأتى صديقى ويساعدنى.

مد نحوى سنارة طويلة وجذبنى حتى سقف الكوخ ثم تركنى أسقط فى الأرض.

توجعت وصرخت، ولكنى وقفت على قدمى، نظرت إليه وكان قد رجع الصياد الساحر. صار وجهه عجوزًا بتجاعيد متوازية؛ شفاه مزمومة تحت عينيه الناريتين.

قال وهو يدفع طرف السنارة فى بطنى: وبعد الآن لن تلعب عند الغدير ولن تقطف الثمار.

قلت له وأنا أتحسس جسمى وأتأوه: سيأتى الملاك صديقى وينقذنى.

ضحك وقال وهو ينظر للفتاة: أحسن طريقة هى أن نشويه.

فقالت بصوت خائف: نعم. قال لها: ربما أيضًا أشويك معه. فتمتمت: ولكنى خادمتك.

قلت لها والكلمات تخرج من فمى حروفا متقطعة: لاتخافى.. لاتخافى سيأتى صديقى وينقذنا.

دفعنى مرة أخرى بسنارته وسمرنى بطرفها فى الأرض.

قال لها: أحسن طريقة هى أن تشويه بنفسك.

قالت: إن شئت.

قلت: لا توافقى.. لا توافقى.

ركلتنى بقدمها وأنا مثبت بالسنارة فى الأرض وقالت: اخرس.

قلت: أنا لم أعد أحبك.

ضحكت وهى تميل نحوه وأنا بينهما على الأرض وضحك وهو يميل نحوها.

وأخذا يتقاذفان الضحك فوقى.

سمعت عند الباب صوتا رخيما يقول: ما هذا الذى يحدث؟

كفّ الضحك، ولم أكن أستطيع أن أقوم من مكانى لكنى حولت رأسى فرأيت رجلاً عجوزًا يلبس ثوبًا طويلا أبيض يقف هناك، عند باب الكوخ.

رفع الصياد الساحر السنارة ولوّح بها غاضبا وقال: هل جئت؟

قال العجوز بصوته الهادئ: ماذا تفعل فى كوخى؟

فردّ الساحر: هل نلعب؟.. أنت تعرف ماذا نفعل.

قال بصوته الطيب: ماذا فعلت بالصبى المسكين؟

رمى الساحر السنّارة غاضبًا وذهب إلى جوار الفتاة وجلس منكس الرأس.

جرت الفتاة واندفعت إلى حضن الرجل العجوز فأخذ يربت على كتفها برفق ويمسد شعرها، ثم قال لها مشيرًا إلى الساحر: اذهبى. اذهبى واجلسى إلى جانبه. انظرى لماذا غضب.

بدأت أستجمع نفسى كى أقوم فأشار الساحر بإصبعه نحوى وقال مخاطبا العجوز فى سخط: انظر!.. ها هو سينهض أيضا.

قال العجوز: دعه يحاول.

ولما وقفت أخيرًا على قدمى قال الساحر فى يأس: أرأيت؟.. لقد فعلها.. وربما الآن يأخذ الفتاة.

قال العجوز: لم لا؟.. دعه يأخذ الفتاة. هما صغيران.

قال الساحر مهددا وهو يقوم: إذن سأرحل من هذا المكان ولن ترانى بعدها. مادام قد أخذ كل شىء فلن أبقى أبدًا.

قال العجوز: ارحل إن شئت. ولكنك تعرف أنك سترجع.

خرج الساحر منكسًا رأسه.

تقدمت من العجوز وقلت فى أمـل: هل أرسلك الملاك صديقى؟

ضحك وهو يقول ولِمَ تريد أن تعرف؟ المهم أنى أنقذتك.

كانت الفتاة تقف خلفى. وضعت يدها على كتفى وراحت تمسح صدرها الطرى فى ظهرى.

التفت وقلت وأنا أهزُّ رأسى: لم أعد أحبك.

قال العجوز: سامحها.

ـ لا.

ـ إن سامحتها سأتركك تلعب عند الغدير.

ـ وإن رجع الصياد الساحر؟

ـ ستجدنى إلى جانبك.. سأنقذك منه مرة أخرى.

ـ وإذا رجعت هى إلى الصياد؟

قالت الفتاة فى نشيج خافت: لن أعود. كنت أخاف سحره، لكنى أحبك أنت.

ومدت يديها فأحاطت كتفى وقربت من وجهها وجهى ومسحت بشفتيها على خدى.

قلت للعجوز بصوت ضعيف: هل أحبها مرة أخرى؟

قال: ستحبها وستعرفان فرحة لم تسبق نشوتها. سيكون العشب الناعم مهدًا لكما وزهور المرج زينة عرسكما. سيلقى عليكما تحية الصباح الورد الأحمر وهو يشرع وريقاته الفتية مبلّلةً بالندى.. والزنابق البيضاء الحية.. والبنفسج الرقيق إذ يوشّى الأرض زينة تحت أقدامكما.. والنرجس إذ تفيض كئوسه الطويلة بالشذى. وستحنو عليكما الأشجار، وتدلى ثمارها مترعة بالرحيق الذى..

خفت الصوت فقلت: يعنى أحبها؟

غير أنى حين التفتّ لم يكن. فرجعت ألعب عند الغدير وفتاتى معى.

أكلنا من الأشجار ثمارها وتذوّقنا رحيقها العسلى.

شربنا من النبع الذى يخرج من الغدير. نحسو قطرات من مائه العذب فنرتوى. وكانت الأزهار جيرتنا وصحبتنا.

فى المساء نؤوب إلى الكوخ، طائرين أتعبتهما نشوة التحليق لكى نرتاح فى سكينة الحب. وفى الصباح تأتى ضيوفنا اليومية المحلّقة. تقف قليلا عند النافذة وتلقى علينا التحية بثرثرتها المنغمة ثم تطير عائدة إلى السماء.

وكان الملاك الجميل يأتى أيضًا عند الغدير كل يوم. يظل جالسا فوق صخرته البعيدة. ينشد أغنيته الغريبة. لكنه يحلّق بعيدًا كلما اقتربت منه.

وذات يوم أتت الطيور الملوَّنة فى الصباح. اصطفت على النافذة صامتة وساكنة. ظلت فقط تحرك رقابها النحيلة بينى وبين فتاتى وهى

ترقبنا بعيونها الدائرية الصفراء قبل أن تطير دفعة واحدة، سربا واحدا اختفى بسرعة فى الفضاء.

وكان ذلك فى اليوم الذى قالت فيه فتاتى: سئمت ولم يعد للثمار طعم.

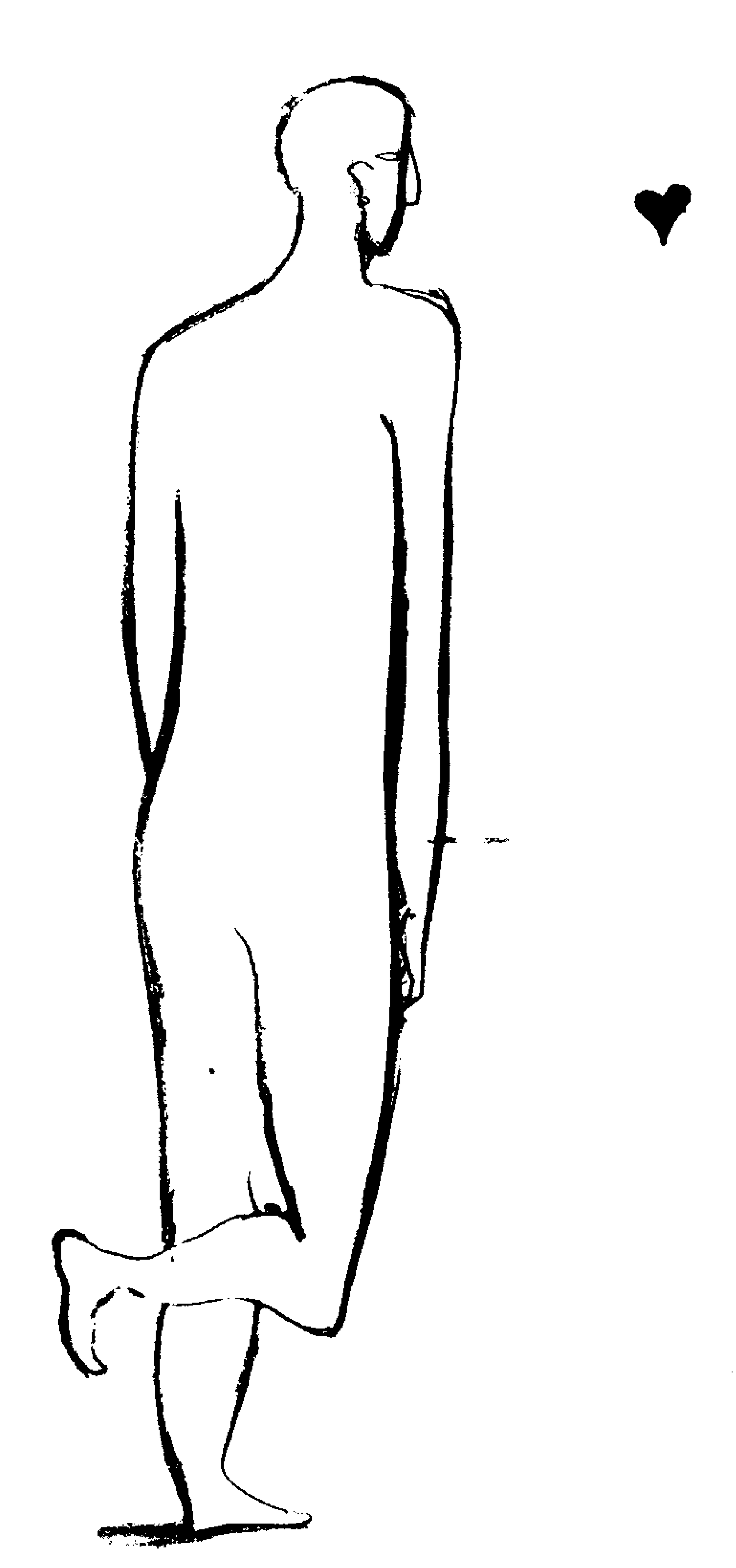
يومها كنت أرقد عند الغدير. أتجرع من مائه جرعات كبيرة فلا أرتوى. ورأيت على صفحة الماء وجهى فكان عجوزًا.

ورأيت الملاك يرفرف بجناحيه فوق سطح الغدير. اقترب منى لأول مرة. سكن النشيد وظل يتطلّع إلىَّ صامتا وهو يحرك جناحيه فى بطء وحين تأملته رأيت دمعتين ماسيتين فوق وجهه الجميل. وأشرقت الحقيقة فجأة فهتفت وأنا منبطح على الأرض: إذن فلهذا كانت الأغنية حزينة؟

غير أنه أيضًا حلق مبتعدًا بسرعة دون أن يرد.

وكان ذلك قبل أن أسمع فوق رأسى الضحكتين. ودون أن أقوم من مكانى كانت تترجرج فوق سطح الماء صورة الوجهين متداخلين. كانت سنارة الصياد فى رقبتى وكان جلباب أبيض يلفح وجهى.

فرحة



ذهبت إلى شلاّل، ولم أكن من قبل قد ذهبت إلى شلاّل، كنت أحب وكنت سعيدًا.

جاءنى الحب بعد حزن، بعد أن فقدت أحبة رحلوا وبعد أن خسرت حبيبة.

صارت الحياة صمتا، وذويت عودا جافا. رحت أنتظر النهاية دون خوف ولا دهشة. ثم جاءنى الحب.

جاء فاخضرت الأشجار واستيقظ فى قلب الشتاء ربيع، ثم واعدتنى حبيبتى أن تلقانى عند الماء.

ركبت قطارًا واجتزت جبالا ومراعى وأنهارا. رأيت جبالا تكسوها الثلوج، فى سفوحها الأشجار خضر، وفى أعاليها ترتدى ثياب عرس بيضاء من الثلج. مواكب من تلك الأعراس لا تنتهى تمر أمام عينى. ورأيت الثلج فى القمم البعيدة يبرق تحت شمس وانية بلون وردى ناعم، ورأيت فى الكون نعمة.

عندما نزلت من القطار فى البلدة الصغيرة لم أسأل عن الشلال. كان هديره الهائل هناك يدعونى. طنينه يوجه خطوى، ونداؤه الآمر يحدونى. قادنى الصوت عبر طرق متعرجة تخلو من الناس، وكانت هناك شمس ترقد كسلى فى حضن سحب خفيفة بيضاء.

أخيرًا وجدت نفسى أمام النهر فأوقفتنى الدهشة. لم أر الشلال.. لم أر نهرا عنيفا ولا سريعا، بل مجرى من مياه خضراء ساكنة بلون الأشجار التى تحف بالشاطئين. لا تبدو لتلك المياه حركة إلا حين تصطدم بجنادل من صخور سوداء متتابعة. تترقرق أمواج هادئة فتصنع حول تلك الصخور فقاعات من زبد. لا شىء ينذر بانفجار أو بشلال سوى ذلك الصخب المدوى الذى يدعونى أن أستمر مع المجرى فى اتجاه صخرة عالية تتوسط النهر، كانت تشبه رأسا بلا ملامح ينهض فوق صدر جبار، ولكن وراء الصخرة لم يكن هناك غير جبل آخر بعيد مزروع بالأشجار. توجهت نحوها، وكانت الجنادل تتابع الآن على مسافات أقرب، والزبد الأبيض يتكاثر حولها ويغلى فى حبيبات فوارة.

ثم فجأة، حين أبلغها تلك الصخرة يتجمد خطوى ويشهق الكون كله من حولى.

فجأة، يصبح النهر كله زبدًا موّارا متدافعا قبل أن تعلو قبة شاهقة من الماء يهوى النهر كله معها نحو الأسفل متلاطما وصارخًا ومدوّما وملوّنا، وقوس قزح كامل يحف به واضحا فى تمامه، ويرمى ألوان الطيف كلها على الشلال الذى يولد بغتة من ماء أخضر وزبد أبيض ليندفع إلى الأسفل فى قباب صاخبة تتلون بهالات من اللون الأحمر واللون الأصفر تتفتت فى لحظة مولدها وتتعاقب جرارة متدافعة لتصنع قوسًا ينأى عن حائط الصخور الرمادية الصلدة التى حطمها الشلال ليصنع فى الأسفل تلك البحيرة الصغيرة التى يهوى الآن إليها ويطلق صرخته الأبدية.

وكنت وحيدًا أمام الصخرة يتخللنى الشلال بأصواته وألوانه، لم يكن سوانا، ولم يكن غير الهدير الأبدى، وقد عدنا إلى لحظة الخلق قبل ملايين السنين عندما لم يكن هناك بشر ولاحيوان، عندما سحق النهر تلك الصخور التى تحبس مجراه ليتحرر شلالاً يبعث صرخة الصخر وصرخة الأرض لتلك النجوم والمجرات البعيدة التى انفصلت عنها، نداء الأرض لأن تعود إلى رحم الكون الذى فارقته، وكنت لحظتها والشلال واحدا، يهدر قلبى معه، ننادى معا، لا نريد تلك العزلة والبعد، نريد أن نعود، أن نعود.

وكنت أهبط درجا حجريا أمام الشلال، أهبط معه نحو البحيرة، وحين وصلت هناك وعيناى لا تفارقان الماء المتدفق فى مهرجان ألوانه وغنائه ربتت يدٌ على كتفى، وحين التفتّ وجدتها وكانت تبتسم.

ضممتها إلىّ كأنى أريد أن أدخلها فى جلدى، كأنى أريد أيضا أن نصبح واحدا. أنا وهى والشلال والكون.

كان رذاذ الماء الذى ينثره الشلال يضرب وجهها وشعرها، وكنت أشعر به أيضا يغمر وجهى. ولما احتضنت ثوبها المبتل بيدىّ المبللتين همست فى صدرى: نعم، أحتاج أن تدفئنى.

ومن خلفها وهى بين ذراعى كانت دوامة الشلال تعصف بالبحيرة، كانت تنكسر وتتفتت حين تضرب السطح فتتصاعد منها مراوح متعاقبة من رذاذ فضى شفاف، كطواويس بيضاء تفرد ذيولها الناصعة وتطويها فى لمح البصر.

همست مرة أخرى فى صدرى: كنت أعرف أن هذا الشلال سيفتنك، ولكن قل شيئا.

كنا مبتلين تماما لكنا لم نتحرك.

هزت يدى وقالت: تكلم!

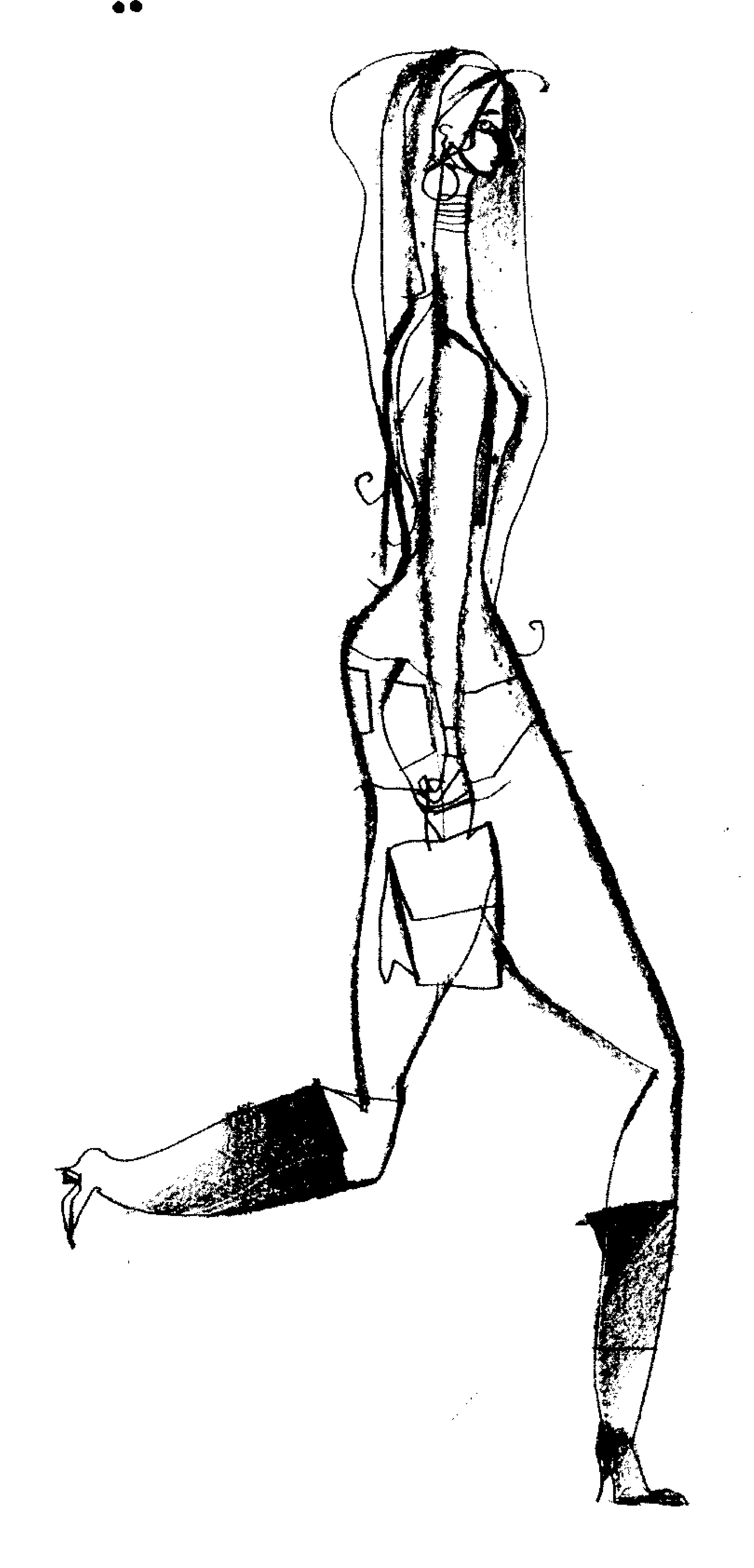
وكنت أحتضنها بيدى وأحتضن الشلال بعينى وأنا أغمغم:

ـ لماذا لا يكون الآن هو الأبد؟

فرفعت نحوى وجهها الجميل، وقالت وكلها بسمة:

ـ ولكنه هو.

الملاك الذي جاء



كانت فى حوالى الأربعين، طويلة غير جميلة، شعرها أصفر وخفيف، ينسدل على جانبى وجهها مثل شواشى الذرة. ولاحظت وأنا أشرب القهوة مع صديقى العربى أنها ترمقنى باستمرار وهى تشرب نبيذها الأحمر فى رشفات صغيرة ولكنها متتابعة. لم أفهم لماذا تفعل ذلك، وشعرت بشىء من الارتباك بسبب نظراتها العصبية المركزة، الخالية مع ذلك من أى تودد. نظرت حولى فى المقهى الهادئ، ربما كانت تنظر إلى أحد غيرى؟.. ولكن لم يكن هناك غير زبائن قليلين منكبين على صحفهم أو مشروباتهم.

انتبهت إلى ما يقوله صديقى، وكان يسألنى: لماذا لا أرجع إلى مصر. قال إنه بناء على ما يسمعه فإن مصر تعتبر جنة الله فى الأرض. فمثلا لو كنت معارضا وقبضوا علىّ فإن من حقى، أن يكون لى محام وأن أذهب إلى قاض، وهذه أشياء لا تقدر. لو كان يضمن عُشرها لرجع إلى بلده من زمن. قال: إنهم فى بلده يبدأون بقتل المعارضين، ثم يبحثون بعد ذلك عن الأسباب. قال: إنه كان يوما أسود يوم قرر فى شبابه أن ينضم لمظاهرات الاحتجاج على الاستعمار فدخل السجن، وحين خرج منه وجد نفسه سياسيا بالرغم منه. وفى الحقيقة ما الذى كان يغضبه من الاستعمار بالضبط؟.. لقد قضى فى السجن أيام

الاستقلال أضعاف ما قضاه أيام الاستعمار، وكان سجن الاستعمار لعب عيال جنب ما حدث له من أهوال فى سجن الاستقلال. وها هو من عشر سنين محكوم عليه بالإعدام فى بلده لأنهم اعتبروا الحزب الذى كان عضوا فيه حزبا خائنا. ولولا أنهم يسمحون له فى هذا البلد الاستعمارى بممارسة الطب لمات من الجوع بعد أن نجا من الإعدام، فما رأيى فى ذلك؟

قلت بشكل عابر: إنه يجب ألا يلوم نفسه لأنه فعل ما كان ينبغى أن يفعله، وحارب من أجل أن يستقل بلده. قلت: إن الاستقلال جيد رغم كل المشاكل.

احمر وجه صديقى فجأة، ولوّح أمام وجهى بعصبية، وقال سبابا فاحشًا جدًا عن أختى على أخت الاستقلال.

شعرت أنا أيضا بالدم يصعد إلى وجهى وقلت له: إننا، فى مصر، لا نحب ذكر نساء الأسرة فى المزاح.

ربت على كتفى وقال: إنها عبارة دارجة لا تؤخذ حرفيا، وطلب أن أسامحه، ووعد ألا يكررها. قلت: إننى أسامحه. ولكننى كنت متوترا بعد ما قال، ولأننى أشعر أيضًا بعينين مركزتين علىّ دون سبب مفهوم. مال صديقى نحوى وقال بلهجة حميمة إنه يريد أن يأخذ رأيى فى مشروع معين لأنه يثق فىّ. ماذا لو باع عيادته وجمع كل مدخراته وسافر ليقضى ما بقى له من العمر فى الأرجنتين؟.. قال إنه من ثلاثين سنة عاش فترة من شبابه فى أمريكا اللاتينية، وسيكون سعيدًا لو قضى ما بقى له من العمر هناك. وهمس وهو يكور يده ويغمز بعينه: إن الحياة فى أمريكا اللاتينية مليئة بالحيوية

وإننى أفهم بالطبع. قلت: وماذا لو قتلوه فى الأرجنتين؟.. قرأت أن حكومته ترسل عملاء لقتل معارضيها فى البلاد البعيدة، ولكنها تخاف أن تفعل الشيء نفسه فى هذا البلد. قلت: إن وضعه فى البلد الاستعمارى أفضل من الأرجنتين. تنهد وقال: إن هذا فقط هو ما يبقيه هنا ويجعله يحتمل البرد والضباب ولكنه يحن إلى الشمس. ثم سألنى مرة أخرى بلهجة رقيقة: لماذا لا أرجع إلى مصر؟

قلت بشيء من الانفعال إنه ليست عندى مشاكل لأننى غير محكوم علىّ بالإعدام أو بأى شيء آخر. شرحت له أننى جئت هنا من عشرين سنة لأحضّر للدكتوراه، ولكن الأستاذ المشرف لم يحبنى لسبب لا أعرفه. وظل يطلب منى باستمرار أن أعيد ما كتبته. فشلت فى أن أغيره وأعمل مع أستاذ آخر. ومع ذلك فقد وجدت منذ مدة عملا يدر دخلا كبيرًا، لأننى أكتب بنفسى رسائل الماجستير والدكتوراه للطلبة العرب والأجانب الذين لا يجيدون لغة البلد، أو الذين ليس لديهم وقت للبحث فى المراجع. قلت: إننى اكتسبت خبرة فى فروع كثيرة من العلوم. إننى أعرف الآن دون أى مجهود المراجع المطلوبة لأى بحث وأعد الرسائل فى زمن قياسى. قلت: إنه برغم أن تخصصى الأصلى هو الأدب فإننى أعتبر نفسى الآن بلا أى غرور حجة فى الاقتصاد الرأسمالى بعد كينزى، وإننى توصلت إلى نظريات. سألنى: وماذا عن الدكتوراه؟.. قلت: أية دكتوراه؟ فقال: التى تعدها. أجبت باقتضاب: إنها أوشكت أن تنتهى. أحنى صديقى رأسه وقال: ارجع إلى بلدك. قلت: إن هذا لا يفوتنى وإننى أقرر أحيانًا أن أعود ثم أنسى. قال إنه يعتذر لبطء فهمه أحيانا ولكنه لا يفهم كيف أنسى مسألة مهمة

مثل العودة إلى بلدى. قلت بشىء من الجفاء: إنها مسألة عادية تماما مثل نسيانه لحكاية الاستقلال.

ولحظتها سمعنا الصوت العالى يقول: «أنت آرابى»؟.. تظاهرت أننى لم أسمع ولكن صديقى لكزنى وقال: انتبه. إنها تكلمك أنت. التفت نحوها قائلا: نعم، واصلت بلسان ملتو «السلام إليكم» فرددنا أنا وصديقى السلام ونحن نبتسم، قالت إنها عرفتنا على الفور لأنها تعرف الوجوه العربية منذ عملت سكرتيرة لرجل أعمال مصرى يعيش هنا. اقترح عليها صديقى أن تنضم إلينا. فحملت كأسها ومعطفها وأتت. كانت تلبس نظارة طبية سميكة العدسات تحاول تثبيتها باستمرار، وخيل إلىَّ أنها تفعل ذلك لكى تشغل نفسها بشىء ما، فقد كانت تحنى رأسها كل دقيقة وأصابعها على نظارتها ولكن دون أن تكف عن الكلام. قالت إنها منذ مدة لم تتكلم مع أحد، ولكنها تتوسم فينا الطيبة لأن مسيو كمال الذى عملت معه من سبع سنين كان طيبا. قالت أيضا: إنها من مدة طويلة لم تقابل أحدًا هنا. سألها صديقى عن السبب فردت: إنها كانت قد سافرت إلى هولندا ثم عادت، فهى ليست من هنا أصلا ولكنها هولندية. وبعد ذلك زمت شفتيها وسكتت.

قلت بعد فترة إننى لم أفهم شيئا ولكننى أحب الزهور الهولندية. بدت فى وجهها فرحة مفاجئة، وقالت إنها عندما كانت فى هولندا التقطت بعض الصور لزهور التيوليب وتحب أن أراها. ثم فتحت حقيبتها وأخرجت مظروفا أصفر منتفخا وراحت تخرج منه صورا فوتوغرافية وتطلعنا عليها، تأملنا أنا وصديقى الصور بشىء من الدهشة ثم رددناها إليها. كانت الصور ملتقطة من مسافة بعيدة لا تبدو

فيها الزهور إلا كبقع منمنمة من الألوان الحمراء والصفراء والبقية سماء زرقاء. رغم ذلك قلنا إن الصور جميلة ورددناها لها.

أعادت الصور إلى المظروف وراحت تسوى أطرافه وقالت بشيء من الشرود إن معها صورًا أخرى. سألتها: لماذا تركت هولندا واختارت هذا البلد. قالت إنه لما مات أبواها من خمسة عشر عامًا لم تعد تجد ما يربطها بالبقاء هناك. ولكنها ذهبت إلى هولندا فى الفترة الأخيرة لأنها هربت من المستشفى والبوليس يبحث عنها، سألتها: أى مستشفى؟.. فأشارت إلى رأسها.

انتفض صديقى كالملسوع واصفر وجهه، وارتبكت أنا، وراحت هى تنقل بصرها بيننا وعلى وجهها ابتسامة غريبة.

بعد فترة قلت بصعوبة: إن كلّ إنسان يواجه مشاكل. فراحت تنقر على المائدة وقالت إنها على العموم واثقة أن كل شيء سينتهى قبل حلول رأس السنة. سألتها: كيف؟ فقالت إنها كانت تبحث عن ديانة وقد جاءتها بشارة بأن الله سيهديها إلى الدين الصحيح قبل بداية السنة الجديدة.

قالت إنها كانت منذ أيام فى غرفتها وظلت مستيقظة كالعادة فى الليل. كان المطر يقرع نافذتها طبولا عالية لا تنقطع أصمّت أذنيها حتى الصباح. ولما طلع النور كف المطر ولكنها رأت السماء غاضبة تغلى ببحر من الدم تندفع موجاته الحمراء سريعة ومتلاحقة خلف زجاج النافذة، ثم فجأة امتدت يد عظيمة أوقفت فيضان الدم وأصبح النور قويا فى السماء ورأت ورودًا مدورة حمراء وكان كل شيء وقتها جميلا فى حديقة السماء البيضاء، ثم جاءها الملاك وقال

لها ألا تخاف وأن كل شيء سينتهى قبل آخر السنة. ولما قالت ذلك هدأ وجهها وأخذت رشفة جديدة من النبيذ.

سألتها فى شيء من الشرود وكيف كان الملاك الذى جاء؟ فتراجعت إلى الخلف فجأة وتطلعت إلىّ فى شك وهى تقول باقتضاب: كان ملاكا عاديا.

حولت وجهها عنى وهى تزم شفتيها من جديد، لكنها بعد قليل نظرت فى وجهى بنوع من العداء، وقالت إننى فى الغالب غبى مثل أولئك الأغبياء فى مستشفى الأمراض العقلية الذين لم يفهموا مشكلتها ووضعوا لها علاجا خاطئا.

سألها صديقى بهدوء مبالغ فيه إن كانوا قد استخدموا معها هناك الصدمات الكهربائية. قالت إنهم حاولوا ذلك أيضا ولكنها رفضت أن توقع على الأوراق التى تسمح لهم بهذا العلاج فاستخدموا معها العلاج بالنوم. قلت: إننى لا أعرف ما هو العلاج بالنوم ولكننى أتمنى لو أنام. منذ سنوات لا أعرف سوى الأرق. أكون ميتا من التعب وبمجرد أن أضع رأسى على الوسادة يطير النوم. فى البدء كنت أقوم وأضيء نور الغرفة وأقرأ. أحيانًا كنت أخرج وأمشى فى الليل والبرد. جربت أيضًا الحبوب المنومة. الآن لا أفعل أى شيء. أظل راقدًا على ظهرى فى الفراش أحدق فى الظلام. يأتى النوم أو لا يأتى لكنى لا أتحرك من مكانى.

نظرت إلىّ دون أن يفارقها الشك تماما، وسألتنى إن كنت قد رأيت العنكبوت. تطلعت إليها صامتا، فقالت إنها رأت الأرق بعينيها وإنه عنكبوت كبير أسود يملأ السقف يغزل الخيوط التى تصطاد النوم

الموجود فى الغرفة ثم يقتله. فى المرة الأخيرة ظل هذا العنكبوت فى غرفتها ثلاثة أيام يلتهم كل نوم يدخل الغرفة فاضطرت أن تذهب إلى الطبيب الذى حولها إلى المستشفى. قالت إن هذه هى غلطتها، إنها ربما لو واصلت الاستيقاظ ولم تيأس لجاءها الملاك منذ مدة وقتل العنكبوت. قلت إن هذا ممكن أيضًا.

فى هذه اللحظة مرت بين الموائد بائعة زهور فى يدها باقات صغيرة فاشترى صديقى منها وردة. ولما قدمها للهولندية بابتسامة مشجعة أشرق وجهها بالفرح. قالت: إنها لا تعرف أبدًا كيف تشكره. قالت هامسة وهى تقترب بوجهها من وجهه إنها تفهم أن هذه الوردة ستؤنس وحدتها وستساعدها على الانتظار. أمسكت بيده وضمتها بين يديها بانفعال فازداد شحوب وجهه.

سحب صديقى يده وقال لى بالعربية: هل نقوم؟ قلت: سنفعل ذلك بالتدريج. أنت طبيب وتفهم هذا أفضل منى. لوح فى وجهى بأصبعه وقال: أنا طبيب ولكن هذا ليس اختصاصى. لو ضبطونى متورطا مع مريضة هاربة من هناك فربما أتعرض للتحقيقات. ربما يسحبون منى ترخيص مزاولة الطب. أنت لا تعرف كم هو صعب هذا الترخيص. قلت له: إنه يبالغ كثيرًا كعادته ويتوهم أشياء. وعلى العموم فسوف نقوم معًا بعد قليل، ولكن لا داعى لأن نجرحها أو أن نظهر لها الذعر. ضحك ضحكة عصبية وقال: ولكن كيف لا أظهر الذعر وأنا مذعور بالفعل؟.. من يدرى ما الذى يمكن أن تفعله بعد لحظة؟..سأقوم أنا. قلت: أرجوك.. قاطعتنا وعيناها تلمعان: تقولان بالعربية إننى مجنونة ويجب أن تهربا منى؟ قلت: بالطبع لا. كيف

يخطر هذا ببالك؟.. قالت: كيف لا وأنا مجنونة فى الحقيقة؟ قلت: ولكنك تعرفين أن هذا سينتهى قبل آخر العام، أليس كذلك؟

قالت: أنا متأكدة..

التفتت إلى صديقى فجأة وقالت له: هل تعرف الدين الصحيح؟.. قال صديقى ـ وهو يبلع ريقه ـ أنا غير متدين. أقصد أننى لست حجة فى هذه المسائل. فقالت وهى ترفع صوتها: كيف تقول لى ذلك؟

مر أحد الجرسونات وتطلع إلينا بدهشة فأحنى صديقى رأسه محتقن الوجه.

قالت وصوتها يزداد ارتفاعا: أنا أعرف. هل تسخر منى؟.. قال الملاك: ستكون البشارة وردة. فلماذا لا تتكلم؟.. إن كنت أنت هو لماذا لا تتكلم؟

عاد الجرسون وقال بصوت خافت وهو ينحنى على المائدة: نحن لا نقبل سكارى فى هذا المقهى. هذا مكان محترم. فقالت بصوت مرتفع: اذهب إلى جهنم أنت ومكانك المحترم. فقال: بل سأذهب إلى التليفون وأستدعى الشرطة.

ألقى صديقى بعملة معدنية على الطاولة وقام بسرعة نحو باب الخروج.

وكانت هى أيضًا تجمع حقيبتها ومعطفها ووردتها وهى تنتفض. أردت أن أقول لها إننى آسف لما فعله صديقى. آسف لما فعله الجرسون. آسف لما لم أفعله. ولكنى لم أنطق بشىء وهى تسألنى بكلمات كالقذائف ودموع سريعة تنزل من عينيها: لماذا كذب

عليّ؟.. هل سمعت؟ سيأتون مرة أخرى ليأخذونى إلى هناك. أرجوك. أرجوك. أنا لا أريد أن أنام مرة أخرى. لماذا كذب عليّ بهذه الوردة؟.. خذها أنا لا أريدها. لا أريد أى كذب. ولكن هل يمكن أن تقول لهم إننى لا أريد أن أنام؟

وكانت تميل نحوى وهى تسألنى دون أن تنتظر أى جواب.. وكانت وهى تتكلم تمسك الوردة. ثم ترميها على الطاولة ثم تستردها وأخيرًا قذفتها بعنف حتى تفتتت وريقاتها الحمراء أمامى، ورأيتها تهرول نحو الباب بقامتها الطويلة المترنحة.

وعرفت أنا أنه فى هذه الليلة ـ أيضا ـ سيكون فى سقف غرفتى ذلك العنكبوت مرة أخرى.

من حكايات
عرمان الكبير



١- حكاية الهجان

يا نسل عرمان الشريف.. ها قد جاءت آخر الأيام وأصبح كل إنسان يهذى بما يعرف وبما لا يعرف، وراجت الروايات والأباطيل عن جدنا ومصدر فخرنا وعزّنا، ولما كنت أعرف مصدر الهوى، وعندى من الأقوال المتيقّنة ما لا يجدى معه الإفك، فها أنا الآن أكتب ما أكتب لأثبّت أفئدتكم أحفاد عرمان، وفؤادك أنت بالذات يا ولدى بعد أن ساء حالنا وشمت بنا الأعداء. لاتحزن يا ولدى ولا تهن، فآل عرمان وإن أخنى عليهم الدهر إلى معاد. واسمع هاتين الحكايتين عن جدك ففيهما عبرة.

ومن البدء أقول لك إن أحدًا لا يعرف، ولا أنا، السبب الذى من أجله هجّ جدنا عرمان إلى الصحراء.

أعرف فقط أنه كان فى وقت هججانه شابا أعزب، شديد الفتوة ـ قيل وشديد الوسامة، وقيلت أشياء أخرى سترد فى موضعها، فسأحكى لك الكثير عن صفات جدنا الفريدة، ولكن دعنى أنته أولا من دحض تلك الافتراءات عن سرّ خروجه من النجع التحتانى إلى الصحراء، دعنى أنته من تلك الأكاذيب بسرعة لنفرغ للمهم.

أول افتراءات أهل النجع وأكثرها شيوعًا بينهم، وإن لم تكد تستحق الذكر، قولهم إن والده (الذى يدّعون أن اسمه الحاج سعدون) قد صفعه على وجهه أمام الناس فى السوق، فوضع عرمان يده على خده ولم ينطق بكلمة، ثم استدار وأخذ فى وجهه، ولم يعد إلى النجع قط.

ومن أبسط الأدلة على تهافت هذه الرواية قولهم أنفسهم إن السعدون المزعوم(واسمه غير مؤكد إذ يقول البعض إنه السعدى أو سعد الله، بل يسميه بعضهم عمر. قائلين إن لقب جدك الحقيقى هو عرمان عمر، وإن كنّا نحن لا نهتم فى تسلسل أسرتنا بمن سبق عرمان، وكفانا به فخرا) ـ أعود فأقول: إن هذا السعدون المزعوم كان من المستحيل أن يعرض عرمان لمثل هذه الإهانة العلنية وهو وحيده من الذكور. بل إن ما يرويه أهل النجع عن نزوح السعدون هذا من قريته الأصلية فى الشمال إلى النجع كان بسبب تعرّضه لشىء يقل عن ذلك بكثير (المؤامرة التى تدخل فيها قصة القرموط والخادم وجراب الفلوس وجراب الناموس التى لعلك سمعت بها، والتى قد أرويها لك فيما بعد). ثم إنه لو صحت قصة الصفعة الوبيلة هذه لما اكتفى عرمان بالهججان إلى الصحراء قريبًا من النجع، بل لهام على وجهه فى بلاد الله الواسعة حتى لا يراه أحد من شهود الفضيحة أو يسمع بمكانه.

ولكنك تعلم يا ولدى مثلما أعلم أن تلك الأكاذيب إنما ازدهرت بعد أن حلّ بآل عرمان ما حل بهم،. وبعد أن أراد الأعداء أن يشمتوا فى نسل عرمان جميعا. ولهذا فلن أتوقف طويلا عند الروايات

الشنيعة التى لا يقول بها غير أعتى خصوم العرامنة وشانئيهم ممن أعمى الحقد والحسد قلوبهم.

فمن ذلك أننا يجب أن نرفض دون مناقشة قصة الغازية التى ضبطها أبوه السعدون ـ على قولهم ـ معه فى حقل القصب وهو يأتى ـ معاذ الله ـ الفاحشة. يكفى أن تنظر إلى مقام جدك عرمان الطاهر، الذى يكاد يشع منه النور، وأن تذكر ما أنعم الله به عليه فى حياته من الكرامات والبركات لكى تعرف ما فى هذا التشهير من الكذب. أم ترانى بعد ذلك فى حاجة إلى أن أقول إن هناك دليلا قاطعا على اختلاق هذه الفرية؟.. فالمعروف أن الغوازى أيامها ما كنّ يحضرن إلى النجع إلا لإحياء الأفراح ثم يرجعن إلى الأقصر من حيث أتين بعد انتهاء الفرح، لأنه ما من بيت كان يقبل بياتهن فيه. بل ومازال هذا مستمرًا حتى اليوم (وإن تكن الأفراح التى تحييها الغوازى قد قلت عما كانت عليه أيام الجد عرمان، ولكن هذه حكاية أخرى). فكيف يمكن بالعقل لأى إنسان أن ينتزع غازية من الفرح وأن يختفى بها عن الأنظار؟.. لم يُسمع أن أحدًا استطاع ذلك، ناهيك عن جدنا عرمان صاحب البركات.

وأكثر من هذه الحكاية تهافتا وأبعد عن الصدق قولهم إن السعدون أو السعدى أو عمر هذا قد شم فى فم عرمان ذات يوم رائحة الخمر فقال له: «اخرج من بيتى يا ملعون!».

سيرة جدنا يا ولدى مبسوطة ومعروفة وليس فيها ما يشين، وكأنما يشعر أهل النجع وهم يؤلفون هذه السفاسف أن أحدًا لن يصدقهم فيقولون إن ذلك كله قد حدث قبل أن يتوب الله على عرمان وينعم

عليه بالبركات. هم لم ينسوا ما حدث ولا نسى أحفادهم بعد كل هذه السنين. وكأن لم يكف ما رآه منهم فى حياته فأرادوا أن ينهشوا سيرته أيضا بعد الممات.. ولكن الحق لن يعدم أن يظهر اليوم مثلما أظهره الله جليا وعرمان يمشى بينهم يرونه رأى العين.

القصة الوحيدة التى تحتمل بعض النقاش من كل ما يرويه أهل النجع هى حكاية الأرض والميراث. هنا وقائع فى سيرة عرمان وكراماته التالية تؤيد بعض ما جاء فى هذه الرواية، وإن كنت أنا نفسى أتردد فى قبولها، وهم يقولون على أية حال ما نعرفه من أن عرمان كان الابن الذكر الوحيد لوالده على خمس إناث. وقيل إن السعدون أو عمر كانت له ابنة أثيرة راحت تزنّ على رأسه ففعل ما لم يفعله أحد من قبل وكتب لها ولزوجها أرضا. بل يبالغ البعض فيقولون إنه كتب للبنات الخمس جميعا أرضا. وقيل إن عرمان لما سمع بذلك الأمر ناقش أباه فى هدوء قائلا له: يا والدى أخواتى دمى وعرضى وهن وأولادهن فى رقبتى حتى ألقى ربى. أرضى هى أرضهن جميعا ومالى مالهن، ولكن من سمع فى النجع أو فى غيره من بلاد الله أن الأرض تخرج من العصب لأزواج البنات؟

فاستمع إليه السعدون هذا، وقال: معاذ الله من الطمع!.. ألا يكفيك وحدك سبعة وعشرون فدانا من حرّ أرض النجع؟.. أنا جئت إلى هذا البلد لا أملك مليما ولا سهما وصنعت كل هذا بعرقى. هذه أرضى يا ولد، من حكم فى ماله ما ظلم.

كان السعدون المزعوم قد قارب الثمانين على قولهم، وأصبح يتكلم بهرف الشيخوخة. ولكن عرمان لم يخرج من فمه العيب

فقال: بارك الله لك فى أرضك وفى مالك يا والدى، أنا لم أكن أريد منك فدانا ولا قيراطا، ولكنك تعرف الأصول فلا تحمّلنى العار.. ثم إنه هجّ.

أقول يؤيد تلك القصة ما عرف عن عرمان فى حياته كلها من عزة وإباء. ولكن أشياء كثيرة تدعونى إلى الشك فيها. إذ مهما تكن شهامة عرمان وعزة نفسه فأنا لا أتصور أن يترك بلده وأرضه لمجرد غلطة ارتكبها أبوه. ثم إنها غلطة لم تكن تعنى شيئا على الإطلاق. إذ من قال إن كتابة الأرض لفلانة أو علانة من أخواته كانت تعنى أن تغتصب هى أو زوجها الأرض؟

ومن الذى كان سيمنع عرمان من أن يأخذ حقه بعد موت أبيه، وأن يضع يده على أرضه كلها؟.. ما كان أحد من أزواج أخواته سيجسر على أن يطالبه بشىء لمجرد ورقة كتبها عجوز فان فى لحظة غاب فيها عقله. فالكل يعرف أن عرمان لم يكن فى يوم من الأيام عويلا بحيث يخاف أن يطلب حقه أو أن يأخذه.

وإذن فما هى الحقيقة؟

ما الذى جعل جدك يترك أرضه، وهى كثيرة، ويترك النجع بحاله وماله ويخرج إلى الصحراء الجديبة؟

بحثت كثيرا دون طائل. أعرف وأثق أنه لم يهجر النجع بسبب شىء يشينه أو نخجل منه نحن أحفاده وهو الذى بنى لنفسه المجد ولنا.

وإذن؟

ذات يوم حملت شكوكى وتساؤلاتى، وكان قد حلّ بالعرامنة ما حل بهم، وذهبت إلى عمتى «عيوشة» التى تعرف الكثير من الأسرار، والتى لم أشك فى حكمتها قط، استمعت إلىّ فى صمت وكانت تمسك (الجوزة) بيسراها تجذب أنفاسها وتهز رأسها وهى تستمع إلى أسئلتى. ولما فرغت أنا أحنت رأسها وبدا أنها تفكر كثيرًا، وقد راحت تعبث بيمناها بخصلات شعرها الأشيب التى تبرز من طرحتها السوداء. ولما رفعت وجهها أخيرًا قلبت يدها اليمنى أمام وجهى وقالت بهدوء وبطء:

ـ أصله يا ولدى مكتوب.

ولعلها تكون قد نطقت بالقول الفصل.

٢ـ حكاية البركات

سنظل نجهل إذن، لفترة على الأقل، ما كان يدور فى رأس جدنا عرمان وهو يترك النجع ببيوته ومزارعه ويتوغل فى الصحراء ميمما وجهه شطر الشرق. وسنجهل أيضا ما جعله يرقى تلك الربوة العالية البعيدة ويفكر فى أن يبنى فوقها بيتا. ألم يسأل نفسه على الأقل وقتها من أين سيأتى بالماء، لا أقول لكى يزرع، وإنما لكى يشرب؟

أو لم يفكر لحظة واحدة فى الضباع والذئاب التى تهيم فى جبل الشرق ليلا، والتى كان أهل النجع يستعيذون بالله حين يسمعون عواءها ثم يتيقنون من أن أطفالهم لاينامون فى مكان مكشوف من البيت؟

مرة أخرى ربما كانت عمتى عيوشة على حق. هو المكتوب وقد

أتى جدنا الهاتف أن يرقى تلك الربوة التى تفصل الصحراء بينها وبين النجع وأن يبنى هناك بيتا.

فأما البيت فمن حجارة بيضاء صغيرة متساوية الحجم يقال إنه اقتطعها بنفسه من الجبل (أو أنه جمعها، لأنها كانت هناك، ملقاة فى انتظاره، من يدرى؟) ومازال هذا البيت قائما حتى اليوم غرب الضريح. بيت صغير، يكاد يكون غرفة واحدة يلتف حولها سور واطئ يحتضن مساحة مكشوفة واسعة. وفيما بعد، ستضاف خارج الساحة وتتحلق حولها غرف كثيرة أخرى. سيتسع البيت ولكن هذه الحجرة وساحتها سيظلان أحب مكان إلى قلوب العرامنة على مدى الزمن. وستكون هذه البقعة المباركة هى ديوان آل عرمان الذى لايفتح إلا لأغلى الضيوف وفى أعز المناسبات. ولكن ذلك بعد حين من الدهر.

وقتها حين بنى جدك عرمان البيت، ولم يكن قد صنع له بعد سقفا، ولا كان لديه ما يفترشه، بات ليلته الأولى على الطوى، مقرفصا، معتمدا رأسه بيديه، لا يلتحف غير جلبابه الذى خرج به من النجع. ما الذى كان يفكر فيه وهو هناك، وحيدًا ومنكمشًا فى العراء؟ هل داهمته الشكوك؟ هل قرر أن يتراجع وأن ينزل إلى النجع، أو أن يسيح فى بلاد الله الواسعة؟.. أم أنه كان هناك، والجبل يردد عواء الوحش، ينتظر صوتًا آخر يعلم أنه سيجىء؟ أم أن ذلك الصوت قد فاجأه وهو فى مكمنه؟

هل كان صاحيا ونجوم الليل تنسحب لتخلى السماء لشحوب الفجر، أم هبّ من نعاسه مبللا بالندى مرتجفا من البرد على تلك

القرقرة الهينة الرتيبة تتردد بالقرب منه؟.. إن كان خائفا فقد زال خوفه وتلك القرقرة تتردد كأنها نداء خفيّ ملؤه الحنين. وكان صدره منشرحًا وهو يخرج من غرفته متوجها إلى الصوت، ليجدها هناك، باركة على الأرض فى انتظاره.

قيل هى ناقة بيضاء عفيَّة. قيل إنها هبّت على قوائمها حين رأته يخرج من عتبة بيته وإنها تهادت نحوه وتحسست وجهه بمشفريها، ثم استدارت تهدى له ضرعها الثرى وهى تدعوه إليها بذلك النداء الحنون. إذ لبى جدك النداء ومدّ يديه إلى الضرع يتحسسه إذا به يدر بين كفّيه شربة من اللبن السائغ المرىء رشفها عرمان وما كاد حتى صنع من كفيه وعاء، وراح يتجرع مرة بعد مرة من ذلك اللبن المدرار، والناقة تحثه بندائها وبضرعها الخوّار بحمله الغزير.

ولكن تلك لم تكن إلا البداية. فما إن شبع جدك من لبنها الذى ما انقطع ولا فتر، حتى راحت تتهادى فى الساحة وهى تلتفت برأسها نحو عرمان تدعوه بعينيها وبصوتها المنغّم، فتبعها جدّك وهى تمشى الهوينى، ثم وهى تسرع شيئا فشيئا قبل أن تخب خبًا فوق تلك الربوة الصخرية الصعبة وكأنها تعدو فوق رمال ناعمة هيّنة وجدك يلهث وهو يركض خلفها محاولا أن يلحق بها حتى قادته إلى أقصى الشرق من الربوة، وهناك توقفت انتظرت حتى أدركها متقطع الأنفاس، وراحت تدور فى بقعة من الأرض تنبش فيها وتتحسسها حتى توقفت فى المكان الذى قُدر لها. ظلت ساكنة برهة ثم راحت تضرب بأخفافها الأرض ضربا هيّنا، ثم راحت ترغى وتزبد، وتمد عنقها الطويل إلى البقعة كأنما تستفهم إن لم يكن قد آن الأوان. وتصغى كأنها تستمع إلى إجابة ما، بعدها راحت تمس الأرض مسا خفيفا بخفيها

الأماميين كأنما تربت عليها، وتميل برأسها مستسلمة كأنها تتضرع وتتوسل، إلى أن استجابت الأرض التى تندَّت، ثم ابتلت فى تلك البقعة المدورة، ثم تدافع منها الخرير وانتثر فوق الصخر الحباب ثم الفقاقيع الفوارة قبل أن يندفع الماء فى تلاطم صاخب من تلك العين يهتك صمت الصحراء، وتجيبه زغاريد الناقة المتصلة، وتهليل جدّك والأصداء التى يرددها الجبل وهى تحيى ذلك العيد النديّ.

وأهلَّ شفق الشروق على جدّك عرمان وهو ساجد فى العراء يصلى، شاكرًا أنعم الله عليه.

وإذ هو هناك راكع على ركبتيه خاشعا، وقد اخضلت عيناه بالدمع، رآها مقبلة نحوه من الشرق من الضياء المطلّ.. لا، لم يرها. بل سمع حفيف الأجنحة قبل أن يرفع عينيه فيرى تلك الأسراب المحلّقة مقبلة من مطلع النور، هابطة من السماء، نحوه، تحلّق فوق رأسه بأجنحتها البيضاء والوردية والزرقاء والمزركشة.. غيمةٌ ملونة فى الشفق.

جاءت تزف إليه بشارة أخرى، ولكنها تتجاوزه فى تحليقها، لاتشقشق ولاتغنى، مضمومة مناقيرها كأنما صدر لها أمر بالصمت فهى لا تغرد.. تلفت خلفه حين حوّمت فوق رأسه، ولكنها دارت دورتها فوقه ثم واصلت تحليقها نحو الشرق، كأنما تدعوه معها وقد بدأت تضم أجنحتها بعد أن تجاوزته وهى تهبط من عليائها برفق إلى الأرض. كانت هى أيضا تتجه إلى هناك، قريبا منه، حيث قادته الناقة من قبل. هناك حيث كان الآن هدير النبع وخرير جدول شق مجراه وسط الصخر منسابا من العين، وحيث تندّت الأرض وصبغتها الشمس الطالعة بلمعة حمراء شفافة.

هناك حطت الطيور، وهناك تمايزت أسرابها، وراح كل سرب ينقر الأرض فى موضعه المرسوم، وأخذ يقبّل تلك الأرض ليودعها السرّ الذى يضم عليه منقاريه، وينبشها بأقدامه النحيلة ليخبئ ذلك السر ويداريه وهو يحثو فوقه التراب فى حرص وفى عشق، وقد بدأت الآن تهدل وبدأت الآن تشدو، وبدأت تتواثب مرفرفة بأجنحتها وكأنها ترقص على إيقاع تلك الأنغام التى تشدو بها.

وما كنا نحن هناك يا ولدى. ولا شهد ذلك شاهد غير جدك عرمان، فلا تصدق الآن ما يقوله لك بعض من يزعمون معرفة اليقين. لاتصدق أن أسراب الهدهد هى التى زرعت بذر البرتقال، وأن الحمام الزاجل هو الذى وضع حب الرمان، وأن الحمام السماوى الأبلق الجناحين هو الذى زرع نوى المشمش والبرقوق بينما حفر اليمام بمناقيره الصغيرة لبذر اليوسفى.

ذلك شىء لا نعرفه، لأن جدّك لم يخبر به أحدًا. كل ما نعرفه نحن أن الطير قد أتى، وأنه قد زرع حديقة الطير عند عين الناقة، وأنها كانت أول نبت فى ذلك الجبل الأجرد.

ذلك ما أعرفه عن يقين أرويه لك، لا أزيد فيه ولا أنقص. فافهم أنت ما تفهم.

شتاء الخوف



١٩٥٩.

خرج صلاح عمران من بيته بعد منتصف الليل وهو يحمل حقيبة ثقيلة.

كانت ليلة شتوية شديدة البرودة، ووجد صعوبة وهو ينزل السلم فى القبض على تلك الحقيبة بأصابعه المثلجة. ولما وصل إلى الباب الخارجى تطلّع من فرجات قضبانه المتوازية فلم ير أحدًا فى الطريق. فتح الباب الحديدى الضخم برفق وبطء محاذرًا أن يحدث صوتًا ثم خرج للشارع.

مشى فى شوارع (الجيزة) الصغيرة المظلمة، وكان يلهث تقريبا وهو يسير محنىّ الظهر بحمله الثقيل.. وعندما كان يلمح شبحا ماشيا أو يسمع خطى جنود الشرطة أو ندهتهم التقليدية «هااااها» يسارع بالاختفاء فى مدخل أقرب بيت يقابله. ولكنه نجح فى عبور شارع الترام الرئيسى بسلام حتى وصل إلى كوبرى عباس انعطف إلى اليسار، ولكنه لم يمش على الكورنيش المزروع بالأشجار والممتد إلى كوبرى الجلاء، بل لزم رصيف المنازل المقابلة له والبعيد عن الإضاءة. مرّ بجوار (فيلا) بركات باشا ولكنه لم يتوقف كعادته. كان دائما يرتاح عندها، يتمهل كثيرًا أمام سورها المغطى بمشربيات خشبية ينفذ الياسمين الأبيض والفروع الخضراء من فتحاتها المدوّرة والمزخرفة على شكل أزهار متوازية منمنمة. فى هذه المرّة لم يتمهل ولم يكن هناك ياسمين. يذكر الآن عندما اكتشف هذا المكان منذ خمس سنوات، وكانت ليلة حاسمة فى

حياته. ليلة زفاف جارته وحبيبته مهجة إلى رجل آخر. كان فى سنته الأخيرة بالجامعة، وقرر ليلتها أن يلقى بنفسه فى النهر. مشى كثيرًا على الكورنيش ودخن أول سيجارة فى حياته، لأنه كان قد قرأ أن المحكوم عليهم بالإعدام يطلبون سيجارة قبل الموت. مع ذلك لم يجد الشجاعة لكى يمشى حتى منتصف كوبرى عباس ثم يقفز من هناك إلى الأمواج كما رسم فى خياله من قبل. انتقل بدلا من ذلك إلى الرصيف الآخر وأخذ يتجول وسط البيوت الصغيرة الأنيقة إلى أن رأى هذه الفيلا التى أعجبته. جلس على إفريز سورها فى الليل الهادئ ودخن سيجارة أخرى ورائحة الياسمين تخدر حواسه، ثم بدأ فكره يتشتت فى أشياء كثيرة، ولم تكن مهجة هى محور كل هذه الأفكار وداهمته بعد ساعات من التجول حيرة وتعب فعاد إلى البيت وهو خجل من نفسه لأنه لم ينتحر. لكم يبدو كل ذلك الآن بعيدًا ولامعنى له!.. هى أنجبت ولدين وأصبحت سمينة، وهو قد نسيها! الآن انتبه إلى أنه هناك، فى الناحية الأخرى، انتهى الكورنيش المزروع بالنجيل والنخلات الأفرنجية القزمة وأعمدة النور العالية. لم تعد هناك غير قطع كبيرة من الحجارة البيضاء المكومة دون نظام على الرصيف المظلم. كان مفروضًا منذ سنوات أن تكمل هذه الأحجار سور الكورنيش لكنها ظلت كما هى وبدأت تتساقط من الحواف وتصنع أهرامات صغيرة بجوار الكتلة المرصوصة. قدّر أنه يمكن أن يختفى خلفها إذا فوجئ بجندى أو مخبر فى الطريق بعد أن ينتهى من كل شىء. ولما استقر رأيه نزل متدحرجا على الشاطئ وهو يتشبث بحقيبته الثقيلة حتى وصل إلى حافة النهر وانغرست قدماه فى الطمى

البارد. ظل واقفا فترة وهو يرتجف حتى بدأت أذناه تألفان الهمس الخافت الرتيب لأمواج النيل فى الشتاء.

كان الظلام حالكا وأنوار قليلة تضوى من نوافذ متفرقة على الشاطئ الآخر فى جزيرة الروضة لكنها لا تعكس شيئا على المجرى العريض الأسود. لم يكن هناك غير شريط رفيع من المياه اللامعة الرجراجة أسفل كوبرى عباس الذى بدا من بعيد ضخما وكئيبا بأنواره الزرقاء الخافتة. وكان بالقرب من الكوبرى مركب نقل يبدو مسمرا فى النهر بشراعه الأبيض المائل نصف المطوى. اعتاد أن يكره ذلك الكوبرى. ما من مرّة يراه أو يمشى فوقه إلا وتطارده الفكرة التى كثيرًا ما عذّبته: الطلاب فوق الكوبرى يهتفون للوطن، ولكن جسم الكوبرى الحديدى يتحرك ببطء ليفتح بئرًا عميقة نحو الأمواج تتساقط فيها الأجسام. لم ير ذلك. كان وقتها طفلا، ولكنه كثيرًا ما سمعه وقرأه. أمدّته تلك الفكرة بشىء من العزم فتطلع مرة أخيرة إلى أعلى، وحين تيقن أنه ليس هناك أى خيال أو أى صوت انحنى وفتح الحقيبة ثم بدأ يخرج الكتب. كان يعرفها جيدًا من ملمسها وحجمها. يكاد يذكر الحواشى التى كتبها بالقلم الرصاص على هوامشها.. تعليقاته الخاصة ومقارنته بين الأفكار، وعبارات الإعجاب والسخط التى يجرى بها حواره مع الكتب.. هذا الكتاب الصغير القطع، الخشن الأوراق، هو تاريخ الحركة الوطنية لشهدى عطية.. قلّبه بين يديه فترة ثم أغمض عينيه وقذف به فى الماء بامتداد ذراعه.. وهذا الكتاب الضخم السميك الغلاف هو الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، وهذه الكتب العريضة المتماثلة الحجم هى أعداد مجلة «الغد» الثلاثة.. وهذا الكتاب الممزق الغلاف نعم، هو بالتأكيد

فى الثقافة المصرية لمحمود العالم وعبد العظيم أنيس الذى قرأه عدة مرات.. وهذه قصص من مكسيم جوركى.. وهذه.. وهذه كتب يعرفها وكتب أخرى لم يستطع أن يتأكد منها فى الظلام ولكنه كان يأخذها من الحقيبة واحدًا بعد الآخر ثم يطوّح بها فى الماء بكل قوته. وراوده خاطر مزعج حين رمى كتابا ضخما لم يتحقق منه. هل أخطأ ورمى جزءًا من تفسير الطبرى على أنه مراسلات ماركس وإنجلز؟.. يذكر أن الكتابين بنفس الحجم ولكن كتاب التفسير له غلاف خشن وفيه نتوءات محبّبة بينما كان غلاف المراسلات أملس. وهو متأكد الآن أن ملمس الكتاب الذى رماه كان خشنا، فهل معنى ذلك أنه نسى كتاب ماركس فى البيت؟ وإذن فما فائدة كل هذا التعب؟.. سيتأكد حين يرجع إلى البيت. إن لم يبق فى المكتبة سوى كتاب واحد فيسهل التخلص منه. ولكنه لم يتوقف عن نزح الكتب من الحقيبة ورميها بعيدًا، بعيدًا بأقصى ما يستطيع، بعيدا فى وسط النهر إن أمكن، لكى لا تسبح الكتب وتعود مرة أخرى إلى الشط. وعندما وصل إلى قاع الحقيبة وأمسك بالكتاب الأخير الصغير القطع والناعم الملمس تعرّف عليه تماما. نعم، هو بالتأكيد تربية سلامة موسى، ولم يكن قد فرغ من قراءته بعد، قلّبه بين يديه حتى وصل إلى الملازم التى لم تفتح وبدأ يتحسسها ثم راح دون وعى يشق بإصبعه إحدى الملازم المقفلة، وحين انتبه إلى ما يفعل طوّح به بعيدًا أيضا وكانت دموع كثيرة تتجمع وقتها فى عينيه. جلس على طرف الحقيبة الخالية ووضع وجهه بين يديه ولأول مرة سأل نفسه: لماذا لم يلق الحقيبة بما فيها للنهر بدلا من أن يخرج الكتب؟ أو لماذا لم يتركها عند أول ناصية فى الطريق ويرجع؟

ولم يجد أى جواب، ولكنه ظل ينتفض من البرد والخجل والبكاء المكتوم.

* * *

بالأمس، فى الصباح، اندهش صلاح عمران عندما دخل الأستاذ جابر رئيس التحرير صالة الترجمة مرتين. لم تكن هذه عادته. فى المرة الثانية وقف وناداه وهو يقول بصوت عال أمام جميع المترجمين: هناك مقال مطلوب ترجمته بسرعة عن ثورة قبرص. أرجو أن تمر على مكتبى يا أستاذ صلاح. وحين تبع الأستاذ جابر إلى مكتبه وجد بعض المحررين فى انتظاره هناك فأعطاه مجلة إنجليزية وقال له: دقيقة واحدة يا أستاذ صلاح. المقال فى هذه المجلة، عن جماعة إبوكا. سأحدّد لك حالا المقاطع المطلوبة للترجمة.. يجب أن نرد على الأكاذيب عن ثورة قبرص وعن حركة إيوكا.. ها هم الآن يتهمونها بالشيوعية على آخر الزمن مع أن رئيسها أسقف! ثم التفت مخاطبا كل المحررين الواقفين فى مكتبه بلهجة خطابية: يجب يا إخوان أن نلتفت إلى محاولات تلويث الثورات الوطنية. يريدون تأليب أمريكا على قبرص كما يريدون تأليبها علينا بتهمة الشيوعية مع أننا مؤمنون وموحدون بالله.

وعندما خرج كل من فى الحجرة طلب الأستاذ جابر من صلاح عمران أن يجلس فى مقعد مواجه لمكتبه واسترد منه المجلة وراح يتصفحها للحظة فى صمت وشرود. وأخيرًا رفع رأسه فجأة وقال بسرعة وبصوت مرتبك وخافت: اسمع يا أستاذ صلاح. ليس من واجبى أن أقول لك هذا، وأرجوك مهما حدث ألا تذكر اسمى.

اسمع، المباحث سألت عنك اليوم. سألونى إن كنت شيوعيا، فقلت لهم إننى لا أعرف عنك إلا أنك شاب متدين ومترجم ممتاز. اسمع.. خذ بالك من نفسك.. أنت تعرف ما يحدث هذه الأيام. أنا أديت واجبى نحوك، ولكن لا أريد أن تكون لى أى علاقة بالموضوع. أنت تفهمنى طبعا؟

تفصد عرق غزير من جبين صلاح عمران، ولم يكن ذلك بسبب التكييف الذى راح جهازه يئز باستمرار. ومع ذلك استطاع صلاح أن يسأل بصوت خافت:ولكن ما الذى فعله الشيوعيون بالضبط؟.. هل حاولوا قلب نظام الحكم؟.. تراجع الأستاذ جابر إلى الخلف وتصلب وجهه وهو يقول: أنت لن تدافع عن هؤلاء الكفرة؟ غير معقول!.. لا تجعلنى أندم على ثقتى فيك. هل أنت بالفعل..؟

قال صلاح عمران بهدوء يكاد يقارب اليأس: لا يا أستاذ جابر، لست شيوعيا ولكننى أسأل.

ثبت الأستاذ جابر نظارته الطبية على عينيه بحركة عنيفة ثم تطلع نحو صلاح عمران وقال بلهجة غاضبة لم يسمعها منه أبدًا من قبل لأنه كان دائمًا مجاملا، يتكلم بهدوء وبابتسامة على شفتيه.. الآن غاضت الابتسامة وهو يقول:

ـ إذن أنت تريد أن تعرف؟ خربوا البلد إن كنت تريد أن تعرف! حاولوا أن يخربوا الثورة والحمد لله أنها انتبهت. كانت الثورة عال العال. أخرجت الملك؟.. الحمد لله.. كنا نحلم أن ينزاح هذا الكابوس. حلّت الأحزاب؟.. خير وبركة، كم كتبنا قبل الثورة عن فساد الأحزاب ورجال السياسة. كانوا يهملون قضية الجلاء

ومشاكل الناس ويتصارعون فيما بينهم على الحكم. لا أريد أن أتباهى بما فعلت، ولكن هذا القلم هو الذى شن أقسى حملة لمكافحة الحفاء قبل الثورة، وتبنى مشروع «صندل لكل مواطن». وبعد الثورة وجدناها تمشى فى الطريق فأيدناها. لكن الشيوعيين أطلوا برؤوسهم كالحيات.. توزيع الأرض على الفلاحين.. مصادرة أملاك الناس.. أولاد الشوارع فى المدارس المجانية، وأولاد الناس يجوعون فى البيوت المستورة.. والفقر لم ينقص فى الريف ولا فى المدن ولكن الحقد هو الذى ظهر وطغى. هل فهمت؟

كان صلاح عمران ينظر بدهشة إلى الأستاذ جابر وهو يقول ذلك، ولكنه سمعه لحظتها يكرر بشىء من الغضب: هل فهمت؟

تمالك صلاح نفسه وقال بهدوء: فهمت يا أستاذ جابر. وعلى العموم أنا أشكرك لأنك حذرتنى. لن أنسى لك ذلك.

قال الأستاذ جابر وهو يلوّح بيده: لا داعى للشكر. أعرف أنك لايمكن أن تكون من هؤلاء الكفرة والحمد لله. ومع ذلك أؤكد عليك.مهما حدث لاتذكر اسمى. أنا عملتها خدمة لأننى..

ولحظتها دخل أحد المحررين فغير الأستاذ جابر لهجته على الفور وهو يقول: فهمت يا أستاذ صلاح؟..هذا هو المقال الذى حدثتك عنه. أرجو أن تترجمه بسرعة ليلحق الموضوع فى عدد الغد. كما شرحت لك. لا بد أن نرد على حملة الأكاذيب على ثورة قبرص. بسرعة أرجوك!

وكان صلاح يتابع الأستاذ جابر بذهول وهو ينقر بإصبعه نقرات

عصبية متتالية على صفحة مصقولة تحتلها صورة طفل يبتسم فى إعلان كبير عن لبن الأطفال.

* * *

لم يستطع صلاح عمران أن ينام فى هذه الليلة.

ظل يتقلب طويلا فى الفراش وهو يحاول أن يفسر تحذير الأستاذ جابر، وأن يفكر فيما يمكن أن يفعله. لم يكن الاتهام جديدًا عليه وإن ظن أنهم قد نسوه مع مرور الأيام. فعندما تخرج فى كلية الحقوق ونجح فى امتحان وزارة العدل عيّنوا كل الناجحين باستثنائه. تحرى أخوه، الذى كان مهندسا كبيرًا للرى ويعرف عددًا كبيرًا من القضاة ورجال الشرطة الذين عملوا معه فى الأقاليم، فاكتشف أن صلاح عمران له ملف صغير فى وزارة الداخلية وأن هذا الملف مكتوب فيه أنه «له ميول». ثار أخوه الذى كان ولى أمره وجاء فى زيارة نادرة إلى بيت الجيزة، وكان صلاح يعيش وحيدًا بعد وفاة والديه. كان أخوه المهندس يعتقد دائما أن الحكومة، أى حكومة فى الحكم، على حق ولايطيق نقدها. قال لصلاح إنه لن يسمح له أن يلوث سمعة الأسرة بميوله. واتجه غاضبا إلى مكتبة أخيه وراح يخرج منها كتبا ويلقيها فى الأرض وهو يقول ما هذا؟ وما هذا؟ وما هذا؟ وتناثر على الأرض راشد البراوى وماركس.. ومحمود العالم وشهدى عطية وقال صلاح فى غضب وهو يجمع الكتب من الأرض وينفض عنها التراب ويسويها بحرص: عندى مئات الكتب فلماذا اخترت هذه؟

فاشتدت ثورة المهندس وهو يتحسس فى المكتبة كتب التفسير

وكتب السيرة وكتب العقاد ثم قال له: ولا تخجل أن تضع هذا الكفر وسط هذه الكتب الطاهرة التى خلّفها أبوك؟

ثم أشار إلى سجادة الصلاة المفرودة بجوار المكتبة وقال لصلاح هازئا: وما معنى صلاتك وأنت تقرأ هذه السموم؟

فقال صلاح فى حماس والدموع تكاد تطفر من عينيه: ليست سموما وليست كفرا. الكفر هو الظلم. هذه.. هذه..

فضرب أخوه كفا بكف وقال: إذن دعها تنفعك!

وأنقص الإعانة الشهرية التى كان يعطيها له. ولم يجد صلاح عملاً لشهور طويلة.

* * *

فى ساعة متأخرة من الليلة التى حذره فيها الأستاذ جابر غادر صلاح عمران البيت وتوجه إلى صديقه حلمى الذى كان فى وقت من الأوقات شيوعيًا، وكان صلاح يتبادل معه الكتب والمناقشات. عندما طرق الباب سمع حلمى يسأل من الداخل بصوت مرتفع وعصبى: «من؟» ولما ردّ «أنا صلاح» سمع صديقه يزفر بصوت عال ويقول: «هذا وقته ياسى صلاح؟».

قابله حلمى بعينين محمرتين وذقن غير حليقة، ولكنه ظل ينظر إليه لفترة عند الباب ثم ابتسم بالرغم منه وهو يقول: «أهلا يا عم صلاح.. كأنى أنظر فى مرآة!».

قال صلاح وهو يدخل: سامحنى ولكن كان لا بد أن أراك ماذا تفعل فى هذه الساعة؟

فرد حلمى وهو يحاول أن يضحك: أكتب قصيدة، ربما تكون الأخيرة!

جلس صلاح أمام مكتب صديقه الشاعر ومدّ يده دون كلفة إلى قصاصات الأوراق التى يكتب فيها قصيدته، سمع حلمى يقول: لم تكتمل بعد، وفيها أشياء يجب أن تتغير ولكن صلاح بدأ يقرأ القصيدة.. ووجدها حزينة من كلمتها الأولى التى احتلت سطرا «مصلوبا.. وتلك الكأس لم تعبرنى.. وتاج الشوك فى قلبى.. أصرخ شعبى شعبى. لا إلى الطواحين سددت رمحى ولكنى».. وبعد ذلك وجد صلاح كثيرًا من الأسطر المشطوبة. وأصبحت القراءة مستحيلة فقال صلاح لصديقه وهو يضع القصاصات على المكتب «لكنى ماذا؟».. لكنى وحدى؟

فقال حلمى ـ من يدرى؟.. وجلس قبالة صلاح وبينهما مصباح عار أصفر ثم سأله ما الذى جاء بك الآن وأنت تعرف أن الطرق على الأبواب فى هذه الساعة من الليل لا يبشر بأى خير؟.. هل تعرف أنهم أغلقوا بالأمس دار النشر التى أعمل فيها وقبضوا على مديرها؟ قال صلاح: نعم أعرف، ثم حكى لصديقه كل شىء عن حواره مع الأستاذ جابر. وكان حلمى يستمع إليه وهو يرسم بالقلم مربعات ومثلثات فى القصيدة الناقصة. ولما انتهى صلاح قال له حلمى بنبرة تأكيد: لا تهتم بذلك أبدًا. لن يحدث لك شىء مادمت لم تدخل تنظيمًا شيوعيا، هم لايقبضون إلا على أعضاء التنظيمات. لا تهمهم الميول.

قال صلاح: فلماذا إذن ذهبوا إلى رئيس التحرير اليوم؟

فكر حلمى قليلا ثم قال: ربما لأنك تعمل بالصحافة.

- أنا لا أعمل بالصحافة. أنا مجرد مترجم.

- ولكنك تترجم فى صحيفة. يهمهم جدًا ألا يوجد فى صحيفة شخص «له ميول» أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن يفصلوك من الصحيفة.

بلع صلاح ريقه وقال: هذا أسوأ من الاعتقال، كيف أجد عملا بعد ذلك، ومن أين أعيش؟.. تعذبت طويلا حتى وجدت هذا العمل.

قال حلمى دون أن يرفع رأسه عن أوراقه: لاشئ أسوأ من الاعتقال ياسيد صلاح، اسألنى أنا.

فقال صلاح وهو يحنى رأسه: معك حق. أخاف من التعذيب، لا أحتمل مجرد قلمين.

- حتى التعذيب يمكن أن تعتاد عليه. أما ما لايمكن أن تحتمله حقا فهو أن يمر يوم بعد يوم وشهر بعد شهر دون أن تعرف متى يمكن أن ينتهى ذلك أو إن كان سينتهى أبدًا.

قال صلاح فى شىء من الشرود: كنت أحلم أنهم قد نسونى. هذا الملف الذى كتبوه عنى قديم، من أيام الجامعة.. لأننا كنا نتباهى أيامها فى الندوات والمحاضرات بالأفكار التقدمية وبأننا شجعان ولا شىء غير ذلك. كنت أحلم أنهم قد عرفوا أننى لست مهما وأنهم قد رموا هذا الملف التافه.

قال حلمى وهو يضحك بشىء من العصبية: إلا هذا يا صديقى! ما دام لك ملف عندهم فلا تحلم بشىء من ذلك. صدق أن الشمس يمكن أن تشرق من الغرب، وصدق أن الهرم يمكن

أن ينقلب ويقف على حافة قمته وقاعدته مبسوطة تحت السماء ولاتصدق أن هذه الملفات يمكن أن تضيع أو تختفى.هى الوحيدة الخالدة. هل تعرف أنهم ذهبوا منذ يومين للقبض على زميل مات منذ سنتين؟ وعندما صرخت أرملته إنه مات، وشبع موتا، أخذوا ابنه رهينة. أخذوه رهينة لماذا؟ لا أعرف! ربما انتظارًا ليوم البعث حتى يسلم أبوه نفسه!

قال صلاح: ولكن ما دمت تقول إنهم لايقبضون إلا على أعضاء التنظيمات، فلماذا تهتم أنت؟.. أعرف أنك تركت التنظيم الذى كنت فيه من مدة.. قلت لى إنك اختلفت مع زملائك على مسألة مبدأ وإنك انسحبت.

فقال حلمى: ليس هذا مهما ما دامت الحكومة لا تعترف بأننى تركت التنظيم. لما قلت لضابط المباحث وهم يفرجون عنا بعد آخر اعتقال إننى طلقت السياسة تماما، ربت على كتفى وقال كأنه يواسينى: هل تريد أن أصدق أن ذيل الكلب يمكن أن يستقيم؟

ـ ولكن لماذا؟

ـ كان مطلوبا منى لكى يصدقنى أن أوقع أوراقا أستنكر فيها نفسى وزملائى القدامى وأن أدين وأعترف وأنا لا أحب ذلك، هذا كل ما فى الأمر.

وضحك حلمى مرة أخرى ضحكته العصبية. لكن صلاح لم يضحك وقال لصديقه: إذن فماذا نفعل؟

قال حلمى: لا تفعل شيئا. انتظر . قلت إنه لن يحدث لك شىء بناء

على ما أعرف، ولكن من الذى يعرف فى الحقيقة شيئا هذه الأيام؟.. من قبيل الاحتياط نظف مكتبتك وجهز بيجامتين.

وكانت تلك آخر مرة رأى فيها صلاح عمران صديقه الشاعر.

فبعد أن نزل من عنده وسار خطوتين فى الطريق رأى السيارة السوداء يتبعها «البوكس» تتجه إلى البيت الذى خرج منه لتوه. رأى ضابطا ينزل من السيارة السوداء وجنودًا يتبعونه من العربة الأخرى. ولما انتقل إلى الرصيف الآخر وظل واقفا لكى يتأكد مما سيحدث ولكى يودع صديقه ولو خلسة، ولو من بعيد، إن كان هو المطلوب بالفعل، جاء أحد المخبرين ووضع يده على كتفه قائلا: لماذا تقف هنا فى هذا الوقت؟ لايوجد شيء للفرجة. ثم دفعه فى ظهره وهو يقول: مع السلامة!

* * *

بعد منتصف إحدى الليالى استقبل النقيب سيد علوان الصحفى صلاح عمران.

كان الضابط سيد علوان يعتقد دائما أن أعداءه وراء كل ما حل به من المصائب. كان مرموقا فى كلية الشرطة بسبب جسده الرياضى الفارع وتفوقه فى الدراسة، وبسبب إتقانه للإنجليزية والفرنسية لأنه تخرج فى مدرسة أجنبية. ومع أنه كان زميلا طيبا لرفاق دراسته فقد جر عليه إعجاب المدرسين والمدربين المتاعب. كانوا فى الكلية يخفون عهدته الرسمية ويلفقون له التهم لكى ينزل به العقاب. وتعمد معظم زملائه أن يبعدوه عنهم لأنه ليس من وسطهم الاجتماعى. وفى

يوم تعيينه سمع بأذنه فى ردهة الوزارة من يقول: «ابن مدرس الإلزامى هذا يعينونه فى المباحث وأنا أذهب إلى طنطا»؟

وحزن لإهانة أبيه الذى كان مدرسا فى الثانوية، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع. لهذا عندما قبضوا على شقيقه الوحيد «سامى» مع الإخوان المسلمين عرف أن كثيرين سيتحركون ضده. يذكر جيدًا عندما استدعاه قائده فى المباحث ولم تكن قد مضت شهور على تعيينه. فى البدء كان هذا القائد متحمسا له. تنبأ له بمستقبل عظيم وقال: نحن نحتاج فى المباحث إلى ضباط مثقفين مثلك. بعد القبض على سامى عرف بمجرد أن رأى وجه هذا القائد أن المسألة قد انتهت. كان الرجل ودودا جدًا. كرر له أنه يثق فيه تماما ويعرف أنه مكسب لأى مكان يعمل فيه ولكن لهذا السبب بالذات فهو يحتاج إلى الخبرة. قال إن فترة من العمل فى الأقاليم وبدء السلم من أوله ستفيده خبرة عظيمة يحتاجها أى ضابط شرطة. دافع سيد عن نفسه باستماتة. قال: يا أفندم شقيقى طالب صغير فى سنة أولى جامعة. لم يقبضوا عليه لأى نشاط فى الإخوان المسلمين، ولكن لأنه كان يجمع تبرعات لأسر المسجونين منهم. وعلى العموم أنا ليست لى أى علاقة.

قال قائده: أنا أصدقك تماما. لو كان لدينا أى شك فيك لما بقيت فى الشرطة. ولكن كما قلت لك هى فترة تدريب وبعدها ترجع للمباحث إن شاء الله.

ولكنه لم يرجع. بذل جهودا ولكن لم يكن له أى ظهر: لا وزير ولا ضابط عظيم ولا حتى تاجر من الأغنياء. خرج أبوه على المعاش قبل أن يتخرج سامى وقال له: أعتمد عليك يا ابنى أن تساعد أخاك

حتى يكمل تعليمه. ولكنهم قبضوا على سامى فى أولى جامعة وقضى خمس سنوات لأنه ضبط وهو يجمع التبرعات، ولما أفرج عن سامى رأى سيد الحفر المتوازية الغائرة السواد فى ظهر شقيقه ولما حكى له عما فعلوه به فى السجن حمد الله لأنهم أرغموه على أن يغير عمله فى الشرطة. ولكن ما أثار جنونه هو أن سامى رجع بعد الإفراج عنه إلى ما كان عليه من قبل. بدأ يقابل زملاءه القدامى أنفسهم الذين دخلوا معه السجن، وبدأت تتكرر نفس الاجتماعات والمناقشات. ولم تنفع محاولاته مع شقيقه ولانصحه ولا تهديده. وعندما كان يشير إلى ما حدث له وهو يقول: «ألم تتعظ؟» يرد عليه سامى «ألم تقرأ قصة آل ياسر»؟ فيصرخ سيد: آل ياسر كانوا زمان، الناس الآن تريد أن تعيش ـ فكيف سنعيش لو ضاعت وظيفتى بسببك؟ فيكتفى سامى بالصمت. ومع ذلك كان إصرار شقيقه يشعره بشىء من الخجل بسبب ما فعله هو بعد القبض عليه: اعتنى بأناقته ولبس سلسلة ذهبية فى صدره وأطال ظفر بنصر يده اليسرى، وكان ينتهز الفرصة ليقول وسط زملائه: سهرة الأمس كان الويسكى فيها للركب!.. أما النسوان..!

وبالتدريج عرف أن ذلك لافائدة منه، وأن اسمه سيظل دائما مهما فعل «أصل أخوه من الإخوان» وعندما نقلوه أخيرًا من منفلوط إلى الجيزة بعد ترقيته إلى رتبة النقيب، اعتبر أن ذلك أقصى ما يمكن أن يصل إليه واحد فى مثل ظروفه.وحمد الله لأنه سيكون أخيرًا بجوار والديه المسنين وشقيقه.

دخل عليه أحد الجنود وكان هو الضابط المناوب فى تلك الليلة الباردة وقال: إن صحفيا يريد أن يقابله. قال للجندى دعه يمر على

المأمور غدًا صباحا أنا لا أقابل الصحفيين. ولكن الجندى رجع وقال إن الصحفى لا يريد أن ينصرف وأنه يريد مقابلة الضابط لمسألة شخصية.

ولما استقبل سيد علوان صلاح عمران وجده مهزوزا وعصبيا فساوره الشك. أصر على أن يطلع على بطاقته الشخصية فوجد مكتوبا فيها أنه صحفى بالفعل ووجد معه أيضا بطاقة النقابة.

قال له صلاح بصوت خافت ومتردد إنه جاء ليسلم نفسه. فلم يندهش الضابط. اعتاد أن يأتى المتعلمون من تلقاء أنفسهم عندما يرتكبون جريمة. وغالبا ما تكون جرائمهم بسبب الشرف أو الغيرة. وصرف سيد الجندى ليأخذ الصحفى راحته فى الكلام.

كانا يجلسان فى غرفة شاحبة الضوء فى الطابق الأرضى تطل على فناء القسم، لها سقف خشبى يتكرر عليه كل فترة وقع الأقدام فيحدث صريرًا مزعجًا. ويضطر الضابط أن يبذل جهدًا ليسمع ما يقوله هذا الصحفى الخافت الصوت.

وبمجرد أن فتح صلاح فمه تأكد سيد علوان أنه يجب أن يأخذ حذره. أدرك أن الصحفى ليس محنكا فى المؤامرات. كان كلامه مختلطا ومشوشا. قال إنه لم ينم عدة ليال ولهذا جاء ليسلم نفسه. قال إنه يعرف أنهم يقبضون على الشيوعيين والماركسيين بوجه عام وهو متأكد أن المخبرين وراءه ويسمع خطاهم فى الطريق.. ومع أنه ليس ماركسيا بالمعنى المفهوم لكنه يؤمن بالمبادئ الأساسية للاشتراكية العلمية بنفس الدرجة التى يؤمن بها من قبض عليهم وهو ليس أفضل من حلمى الشاعر مثلا، وهو بالمناسبة متدين ويعتقد أن هذه

المبادئ تتفق مع الدين تمامًا لأن الدين هو العدل وحضرة الضابط يفهم طبعا.. وقد ظل ينتظر القبض عليه منذ فترة طويلة ولم يذق دقيقة من النوم فى الليالى الأخيرة.. وهو لا ينتسب إلى أى تنظيم، ولكنه سئم الانتظار وكل ما يرجوه من حضرة الضابط هو أن يريحه الآن ويرحله فورًا إلى حيث يأخذون المعتقلين.. وقد أحضر معه الملابس وأشياء أخرى لايعرف إن كان مسموحا بها أم لا.. فهل يمكن له مثلا أن يحتفظ بأدوية الدوسنطاريا؟ إن لم يكن مسموحا فها هى الحبوب وخلصونا!

استمع سيد علوان لهذا الكلام المضطرب بكل انتباه. لم تفته كلمة. توقف بصفة خاصة عند كلام الصحفى عن الدين وأنه إنسان متدين. فهم المسألة. وبينما كان صلاح عمران يقول عبارته الأخيرة ويضع على مكتب الضابط شرائط أقراص (الأنتروفيورم) قال له بكل هدوء:

ـ أنا سأريحك تماما يا أخ صلاح. قل لى من الذى أرسلك؟؛ تطلع إليه صلاح بشىء من الحيرة فارتفع صوت الضابط قليلا وهو يقول:

ـ من الذى أرسلك يا ابن اللئام؟.. من الذى يريد أن ينتقل إلى قسم الجيزة ويريد أن يتخلص منى؟

ثم ألقى نظرة سريعة على بطاقة صلاح وقال له: آه!.. أنت قريب اليوزباشى فتحى عمران؟

قال صلاح: أنا لا أعرف أى يوزباشى. ليس لى أقارب فى الجيش أو فى البوليس.

قال الضابط: إذن لحساب من تعمل؟ اذهب يا شاطر وقل لهم سيد علوان لا إخوانى ولا شيوعى. فاهم؟.. ضرب كفا بكف وقال: سمعت؟.. أنا لا إخوانى ولا شيوعى. اذهب وقل هذا لمن أرسلك. قل لهم سيد علوان صاحى جدًا ولم يعد يؤكل بسهولة. ولكن بشرفى لن أتركك تذهب قبل أن أؤدبك.

قال صلاح: يا حضرة الضابط أنا لا أفهم أى شىء مما تقوله. ما الذى فعلته لتقول لى هذا الكلام؟ كل ما أريده هو أن أنام. كل ما طلبته هو أن تقبض علىّ الآن وترحلنى. هل هذا كثير أيضا؟

وضحك ضحكة غريبة خشنة لكنها بُترت حين وصل سمعه فى هذه اللحظة صوت أشياء ترتطم فى الطابق العلوى وسمع صرخة طويلة أعقبها خوار إنسان يجأر بالألم.

قال صلاح بصوت خافت: ما هذا؟

فقال سيد علوان ببطء وهو ينظر إليه نظرة فاحصة: هذا هو حيث تريد أن أرحّلك. أليس كذلك؟

ولما رأى يد الصحفى ترتجف وهو يمدها ليستند بها إلى المكتب ورأى وجهه الأسمر يتحول إلى لون الرماد، سأل سيد علوان نفسه: هل يمثل علىّ هذا الولد؟ وراح يتأمل بطاقته كأنما سيجد فيها الجواب.

وسمع الصحفى يقول وكأنه يكلم نفسه: أيهما أفضل؟ أيهما أفضل أن يعتقلونى أو أن يفصلونى من عملى؟ أنا أسألك.

ووجد سيد علوان نفسه يقول فى صوت غاضب: وماذا سيحدث

لك لو فصلوك من عملك؟ لماذا تخاف؟ لن تموت لو فصلوك من عملك، فما معنى الخوف؟ ألم تقرأ قصة..

ووجد نفسه يوشك أن يقول «قصة آل ياسر» ولكنه بدلا من ذلك رمى البطاقتين فى وجه صلاح عمران وقال بصوت خشن: اسمع يا ولد. امش من هنا. امش حالا، وإلا بشرفى أرحّلك بالفعل إلى مستشفى الأمراض العقلية.

وكانت الضجة فى الطابق العلوى لا تزال مستمرة، وسمعا أقداما تنزل بسرعة على سلم خشبى، ثم فتح الباب بسرعة ودخل أسامة حسان ضابط المباحث وهو يمسك بين ذراعيه بكومة كبيرة من الكتب.

كان ضخم الجسم، يلبس رغم البرد قميصا خفيفا مشمرًا كميه، ورمى الكتب على المكتب وهو يقول لاهثا.

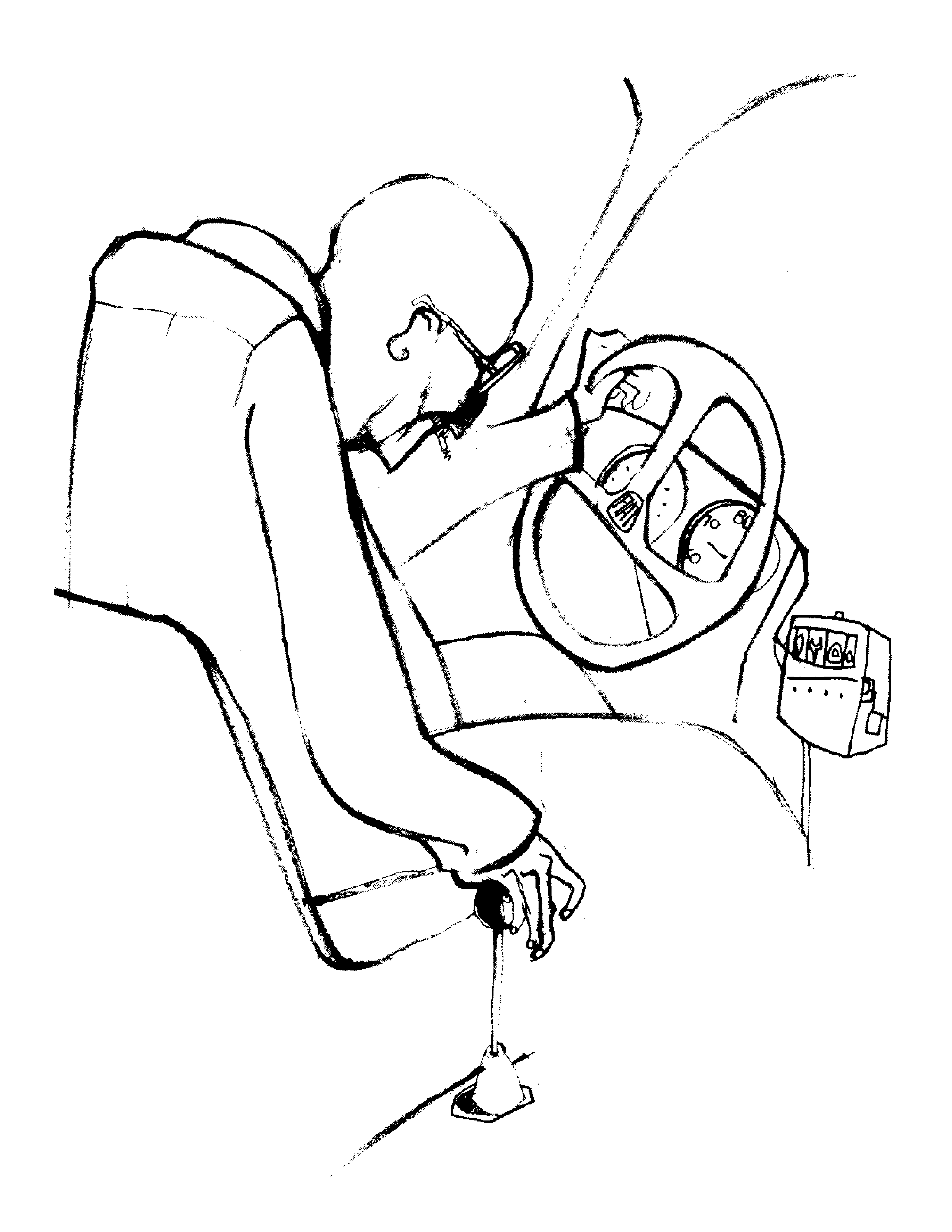
ـ لا مؤاخذة يا عم سيد. عندك ضيف؟.. هذه كتب وجدناها مع واحد من إياهم ونريد أن تقول لنا إن كان فيها شيء (كده ولا كده) وضحك..

وكان سيد علوان قد وقف فى انتباه وقال تمام يا سيادة المقدّم. دقيقة واحدة من فضلك. دقيقة واحدة أسلم على الضيف وأرجع.. ونظر إلى صلاح عمران فقام ببطء وأخذ حقيبته الصغيرة، وكان سيد علوان يدفعه تقريبًا حتى خرجا إلى فناء القسم المظلم وهناك قال له فى همس وهو يضع يده على كتفه: ارجع إلى بيتك ونم.. ولا معنى للخوف، ما سوف يحدث لك فسوف يحدث. لا تستعجله. مع السلامة.

ثم عاد بسرعة. ولكن صلاح ظل يقف مسمرًا تقريبًا فى الفناء المظلم الخالى عاجزًا عن التفكير وعاجزًا عن الحركة، ورأى من مكانه سيد علوان يقف أمام المكتب فى الغرفة الشاحبة الضوء وهو يقلب فى الكتب ورأى الضابط السمين ينحنى مستندًا إلى المكتب بيديه وسمع سيد علوان يقول:

ـ هذه كلها روايات يا سيادة المقدم: روايات يا أفندم ليس فيها شىء مما تبحث عنه. كلها حكايات وكلام فارغ.

ولكن



وقفت خارج المطار حائرًا، ثم بدأت أدفع عربة الحقائب الثقيلة دون هدف، كان قد مضى نصف ساعة تقريبًا منذ انحسرت موجة السائقين التى اندفعت نحوى فور خروجى من باب المطار.

انسحبوا بالسرعة نفسها عندما قلت إننى ذاهب إلى بولاق. كان أحدهم مهذبا وقال لى وهو يبسط كفيه مبتسمًا إنه مستعد لأى خدمة، حتى وجه قبلى نفسه، وإنما المهم أن يكون فيها سفر. وقال لى آخر إنه وإن كان يعمل على خط الإسكندرية إلا أنه مستعد لأن يأخذنى إلى بولاق إذا دفعت له ثلاث «برايز» ولما أبديت عدم الفهم انصرف دون كلمة وهو يشوح بيده.

لم أكن قد عملت حسابا لهذه المشكلة. ولم تفلح أيضًا محاولاتى لتجنب المشاكل الأخرى التى توقعتها. ذهبت فى أول أتوبيس أخذ ركابًا من الطائرة، وعدوت تقريبا من الأتوبيس إلى مبنى المطار، ووقفت مع أوائل من وقفوا فى طابور ختم الجوازات ولكن كل ذلك لم ينفع. عند مدخل المطار كان يقف هؤلاء الأشخاص الذين يقفون دائما ـ جنود الجيش وجنود الشرطة بزيهم العسكرى، والمخبرون بمعاطفهم الرمادية، وموظفو السياحة بثيابهم الأنيقة، وكانوا جميعا ينادون على أسماء مختلفة ونحن نندفع إلى المطار. فى الماضى أيام

كنت منتدبا للجزائر كان هؤلاء ينادون على أسماء معروفة، فيبرز من بيننا ـ نحن العائدين ـ أشخاص، هم غالبا من كبار الموظفين يعطى كل منهم جواز سفره لمن نادى عليه فيهرول المنادى إلى الداخل قبله. وكان من أحلامى أيامها أن أصل إلى أن ينادى أحد على اسمى ويأخذ جواز سفرى، ولكن هذا لم يحدث إلى أن تركت الوظيفة والبلد. فى هذه المرة نادرًا ما سمعت أسماء أعرفها.

كانت النداءات على فوج.. رع توريزم، والمسيو فانسان، والمستر «كارنى» والمستر «ياما ساها»... إلخ ـ وهكذا حدث أمام نافذة الجوازات ما حاولت أن أهرب منه. كان الضابط فى المقصورة الزجاجية قد أخذ جواز أول شخص يقف فى الصف ثم بدأت تنهال عليه الجوازات الأخرى من الخلف. كان يتناولها واحدًا واحدًا، ويقلب صفحاتها ويفحصها بكل دقة قبل أن يختمها فى النهاية بخبطة انتقامية، «طاك» ثم يردها لمن يقف خلفه. وكان علينا نحن أن ننتظر.

انتظرت طويلا فى الجوازات وانتظرت طويلاً فى الجمرك، وحين خرجت من المطار فى النهاية كان يغمرنى العرق والتعب، ورحت مرة أخرى أتنقل بين التاكسيات التى تملأ ساحة المطار دون نتيجة. بحثت ـ رغم كل شىء ـ عن صاحب (البرايز) الثلاث ولكنه كان قد اختفى.

بدأ المغرب يزحف نحو الليل، وأصبحت مستعدًا للوصول إلى البيت بأى ثمن.

وبينما أشق طريقى وسط صفوف التاكسيات التى تنتظر السفر،

رأيت ذلك السائق العجوز واقفا إلى جوار سيارته، وهو يدخن قلت له فى يأس: بولاق ، فقال: اركب.

وضعنا الحقائب فى الشبكة الحديدية التى تعلو العربة، وكنت أساعده أكثر مما يساعدنى. وبينما كان يقود سيارته الـ ١٢٨ العتيقة وسط الشوارع المتعرجة والمتقاطعة المحيطة بالمطار بدأت أتأمله، كان نوبيا أو سودانيا، مازال شعره المجعد كثيفا، وإن بدأ الصلع يزحف على الجانبين ويجعل جبينه العريض أكثر ارتفاعًا ووجهه أكثر نحولاً وضمورًا. ولما خرجنا من ساحة المطار إلى الطريق العام سألته ذلك السؤال الذى حيرنى منذ اتفقت معه:

ـ قل لى من فضلك يا حاج: لماذا أنت الوحيد فى المطار الذى لم تساومنى وقلت لى الأجرة حسب العداد؟ لم يرد على الفور كأنه يبحث عن إجابة ثم قال: ربنا ساترها. ولكن قل لى أنت.. حضرتك أصلا من سكان بولاق؟

ـ نعم، ولكنى الآن أعيش فى الخارج.

ـ فى السعودية؟

ـ فى إنجلترا.

ـ ما شاء الله. والأسرة فى بولاق؟

ـ نعم

ـ والوالد والوالدة؟

ـ الوالدة فقط. الوالد توفى من زمن.

ـ تعيش.

عاد إلى الصمت. لم أقل له إننى لم أر أبى قبل أن يموت. كنت أيامها فى الجزائر. ولما وصلتنى البرقية التى تقول الوالد مريض ارجع فورًا، لم أرجع فورًا. استغرقت إجراءات السفر والحجز بضعة أيام، وعندما وصلت كان كل شىء قد انتهى. لم تمهله الجلطة والغيبوبة، ومع ذلك فلم يكن عجوزًا عندما مات.

قال السائق ـ أنا أيضا عشت فى بولاق، جاء أبى من النوبة وأنا صغير وأخذ شقة هناك، عشت فيها حتى أصبحت رجلا واشتغلت. لم نتركها إلا عندما هدموا البيوت ليشقوا الكورنيش. كنا نسكن جنب سيدى الفصيح.. تعرف سيدى الفصيح؟

ـ كنت صغيرًا جدًا لما فتحوا الكورنيش.

(أذكر مع ذلك كالحلم مئذنة قصيرة حمراء، وأذكر أمى وهى تقسم بسيدى الفصيح وأذكرها تقول عندما يسكت أحد دون سبب: نأخذك لسيدى الفصيح؟).

قال السائق ـ كان مقامه مقابل جامع السلطان (أبو العلا) هدموا مقامه مع البيوت أيضا، الناس هاجت لما أرادوا هدمه والحكومة قالت إنها ستبنى مقامًا جديدًا، ولكنهم لما فتحوا مقامه لم يجدوا أحدًا.

ضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول: كيف؟ إذن لم يكن هناك سيدى الفصيح؟

التفت السائق العجوز برأسه، وقال فى غضب: ماذا تقصد؟ ما معنى كلامك؟ هذا ولىّ من الصالحين.

قلت فى دهشة: ولكن أنت الذى قلت إنهم لم يجدوه.

فقال بلهجة تأنيب وهو يهز رأسه:

ـ بالطبع لم يجدوه يا أفندى لأنه مشى.. قبل أن يهدموا مقامه الطاهر مشى.. كنت تريده أن ينتظر إلى أن يهدموا المقام عليه؟

قلت: بالطبع لا. أنا فقط كنت أسأل.

فعاد يهز رأسه وهو يقول بلهجته المؤنبة: الأولياء لهم طرق يا أستاذ. بولاق كلها بركة وناسها أحس ناس.. لماذا تركتها يا أستاذ؟

ولكنه لم يكن ينتظر منى جوابا لأنه استمر يقول: منذ تركت بولاق لم أعرف يوما من الراحة. كنا نعيش فى بيت فيه خمس شقق وخمس عائلات.. ولكنها كانت كلها عائلة واحدة، إذا ظهر الخضار فى موسم جديد ودخل بيت أسرة قبل غيرها لا بد أن نقسمه على خمسة، وفى الليل كنا نأخذ الفرش ونجلس كلنا على شط البحر ونتسامر حتى الفجر. كنا نضحك من القلب. هل تفهمنى؟

ـ أفهم ولكن ما الذى جرى بعد بولاق؟ لم يكن جيرانك طيبين؟

قال وهو يعود إلى الانفعال: إذن أنت لم تفهم. أنا أقول لك إننا كنا أسرة واحدة. خمسة بيوت كانت أسرة. الآن قل لى ماذا جرى؟ حتى فى البيت الواحد ماذا جرى؟ أولادى الثلاثة ربيتهم وعلمتهم

كلهم فى الجامعة. أردت أن يكونوا إلى جوارى فى شيبتى، ينزلنى واحد منهم فى قبرى عندما يجىء يومى. الآن كلهم فى السعودية. أحضروا لى ثلاثة مسجلات وأربعة تليفزيونات. يافرحتى!

حتى البنت التى تؤنسنى فى البيت زوجها ينكد عليها وعلىّ كل يوم، يريد أن يحضر له إخوتها عقدًا من السعودية. اشتريت له سيارة (بيجو) جديدة يكسب منها الذهب، ولكنه كل يوم يشتكى وينكد على البنت لأنه يريد السفر. سيسافر أيضا. مثلك ومثل كل الناس. مثل سعادتك فى إنجلترا ووالدتك فى بولاق. مثل سعادتى فى مصر العتيقة وأولادى فى السعودية. يا فرحتى!

وحين قال كلمته الأخيرة لطم خده الأيمن بكفه بسرعة وقوة فلزمت الصمت. عرفت أن أى شىء أقوله سيزيد ثورته فلم أنطق. ولكن ماذا لو حكيت له حكايتى؟ ماذا لو قلت له إننى كنت مدرسًا قانعًا براتبى وقانعًا بحياتى أحب أبى وأحب أمى وأحب الحياة فى بولاق؟ نعم. فرحت لما انتدبونى للتدريس فى الجزائر.. قلت سأكوّن نفسى هناك ثم أرجع لأعيش مرتاحا، ولكنى لما رجعت من هناك تبخرت المدخرات بسرعة فى سداد الديون بعد موت أبى، فى تعليم إخوتى الأصغر بالمدارس، فى الغلاء الذى جدّ والذى لم أكن قد عملت حسابه. ماذا لو قلت له إننى فشلت فى صراع الدروس الخصوصية، وكان لا بد أن أسافر من جديد لكى أعيش ولكى يظل البيت مفتوحًا؟.. ماذا لو قلت له إننى أخيرًا ترقيت من مدرس ثانوى إلى بائع فى محل فى (بيكاديللى) يضع فى واجهته لافتة تقول: نحن نتكلم العربية؟

كان السائق العجوز شاردا أيضا مع أفكاره وكنا قد تركنا منشية البكرى، واقتربنا من الجامع الأبيض المهجور، حين قال لى بلهجة حزينة:

ـ اقرأ الفاتحة يا أفندى.. هنا أيضا ولى من الصالحين.

وكان يمسح وجهه بيده وهو يقول «آمين» ثم التفت نحوى وقال بنوع من الاستفزاز: أو يمكن سعادتك من (بكوات) الانفتاح؟

ـ هل يبدو علىَّ ذلك ياحاج؟ أنا فى حياتى ما أحببت أحدًا مثله. فى يوم جنازته ظللت أبكى حتى ضاع صوتى لمدة أسبوع.

فقال بنوع من الرضا ألف رحمة ونور عليه. كان رجلا.. هل تعرف يا أفندى أن أمريكا قالت له بعد النكسة خذ ألف مليون دولار وقصرًا لكل واحد من أولادك واترك لنا البلد، فقال لهم لا أتركها للاستعمار ولا بمال قارون؟

غمغمت وأنا أدارى ابتسامتى ـ ممكن.

فقال ـ كانوا يحسبونه من إياهم. لم يكونوا يعرفون أنه واصل.

قلت بشىء من الدهشة ـ واصل؟ ماذا تقصد؟

فقال بشىء من التردد ـ سأقول لك يا أفندى، ولو أنى لم أحك هذه الحكاية لمخلوق. لكنك ابن حلال ولهذا سأقولها لك. كان لى قريب يشتغل فى حرس السواحل بالإسكندرية، وكان يقف بالقرب منه فى المنشية لما ضربوا عليه الرصاص. حضرتك فاكر؟

ـ ومن ينسى؟ لما قال فليبق كل فى مكانه.

ـ عليك نور. وفاكر طبعا لما الإذاعة قالت إن الرصاص طاش ولم يصبه.

ـ طبعا.

قال وهو يهز رأسه لليمين واليسار ـ ما قولك إذن إن الرصاص أصابه بالفعل؟

ـ نعم، قرأت مرة إن إحدى الرصاصات أصابته وصدها المصحف الذى كان فى جيبه.

قال وانفعاله يشتد: أرأيت؟ ولكنى لا أحكى عن هذه الرصاصة. أحكى عن الرصاص الآخر ـ كل الرصاص الذى ضرب عليه أصابه بالفعل يا أستاذ! رآه قريبى بعينيه وهو يصيبه فى صدره.. كان الرصاص يصيبه يا أستاذ، ولكنه بمشيئة الله كان يمسح بيده على صدره فيتحول الرصاص إلى ماء يسيل من يده. وقبل أن أقول شيئا التفت نحوى وقال:

ـ لعلك لا تصدق؟

قلت بشىء من الحيرة: أنا لم أكن فى الإسكندرية ولم أر.

فقال قبل أن أكمل كلامى وهو يهز رأسه: بل قلها. قل إنك لا تصدق.

أنا أيضا لم أصدق. قلت قريبى عقله مخروم. ما معنى أن الرصاص يصبح ماء. هذا كلام مجانين.

ـ أنا لم أقل ذلك يا عم.

ـ ولكن أنا قلته! والله العظيم قلته بيني وبين نفسي حتى شاء ربك أن أرى بعيني هاتين لكي أصدق.

ـ كيف؟

ـ هناك مكان الجامع قبل أن يموت بشهرين.

سكت لحظة. ثم بدأ يتكلم ببطء، وأخذ صوته يخفت بالتدريج وكأنه قد نسى أنه يكلمنى.

قال: كنا بعد منتصف الليل يا أستاذ. كان الطريق مظلمًا وكل أنوار الشارع مطفأة وأنا راجع من المطار إلى بيتى. أيامها كانوا قد (شطبوا) هذا الجامع، وكأنهم يعرفون أن يومه قرب. وقبل الجامع بالضبط أشار لى رجل طويل يلبس جلبابًا أبيض وعباءة بيضاء. قال لى: فاضى توصلنى يا أسطى؟ قلت: اركب. شبّهت على الصوت ولكننى استبعدت. وبينما كان يميل بجسمه ليركب فى المقعد الخلفى رأيت على كشاف سيارة من ورائى جانب وجهه. ورأيت عينيه والجرح الذى فى جبينه فعرفته على الفور. لكنى لم أنطق. قال لى: السيدة يا أسطى.. فمشيت دون كلمة، كنت أريد أن أقول له أنا معك. من وقت أن قلت ارفع رأسك يا أخى وأنا معك. من البلد وأنا معك. من وقت تنحيت وأنا معك. ولكنى لم أنطق بحرف ونزل علىَّ سهم الله. كان له هيبة. بعد أن مشينا مسافة طويلة ربما ونحن فى شارع بورسعيد قلت له: أين فى السيدة يا أفندى؟ قال: الجامع. قلت له: ولكن الجامع مقفول. يقفلونه بعد صلاة العشاء. قال: أعرف، ولكن خذنى إلى الجامع يا أسطى من فضلك.

كان صوت السائق قد خفت حتى بدا كأنه يكلم نفسه، وملت فى المقعد لأقترب منه وأسمع ما يقول لكنه سكت، وبدا أنه قد نسينى فوجدتنى أهتف: أكمل يا حاج أخذته إلى الجامع؟

فانتبه وقال بصوته الخافت: أخذته يا أفندى.. ولكن الجامع كان مقفولا كما قلت من بعد صلاة العشاء. وكان هذا الميدان الذى (يشغى) بالحركة ليل نهار خاليا ليس فيه مخلوق.. أنزلته عند باب الجامع الكبير ومشيت بالعربة خطوتين ثم وقفت أنظر ما يفعله. رأيته يطلع السلالم الصغيرة، رأيته يقف أمام الباب الكبير، ثم رأيت البابا ينفتح ويخرج منه نور وبعد أن دخل رأيت الباب يقفل عليه.

قلت وكأنى أهمس فى أذنه.. من فتح له الباب؟

ـ قلت لك لما طلع السلالم الباب انفتح. فهمت؟

عدت أستند إلى المقعد وأنا أقول: نعم فهمت.

ـ ربما تكون فهمت.. أما أنا فرأيت بعينى.. كان يعرف أنه ماشى فراح يسلم على الست الطاهرة.. كان يعرف.

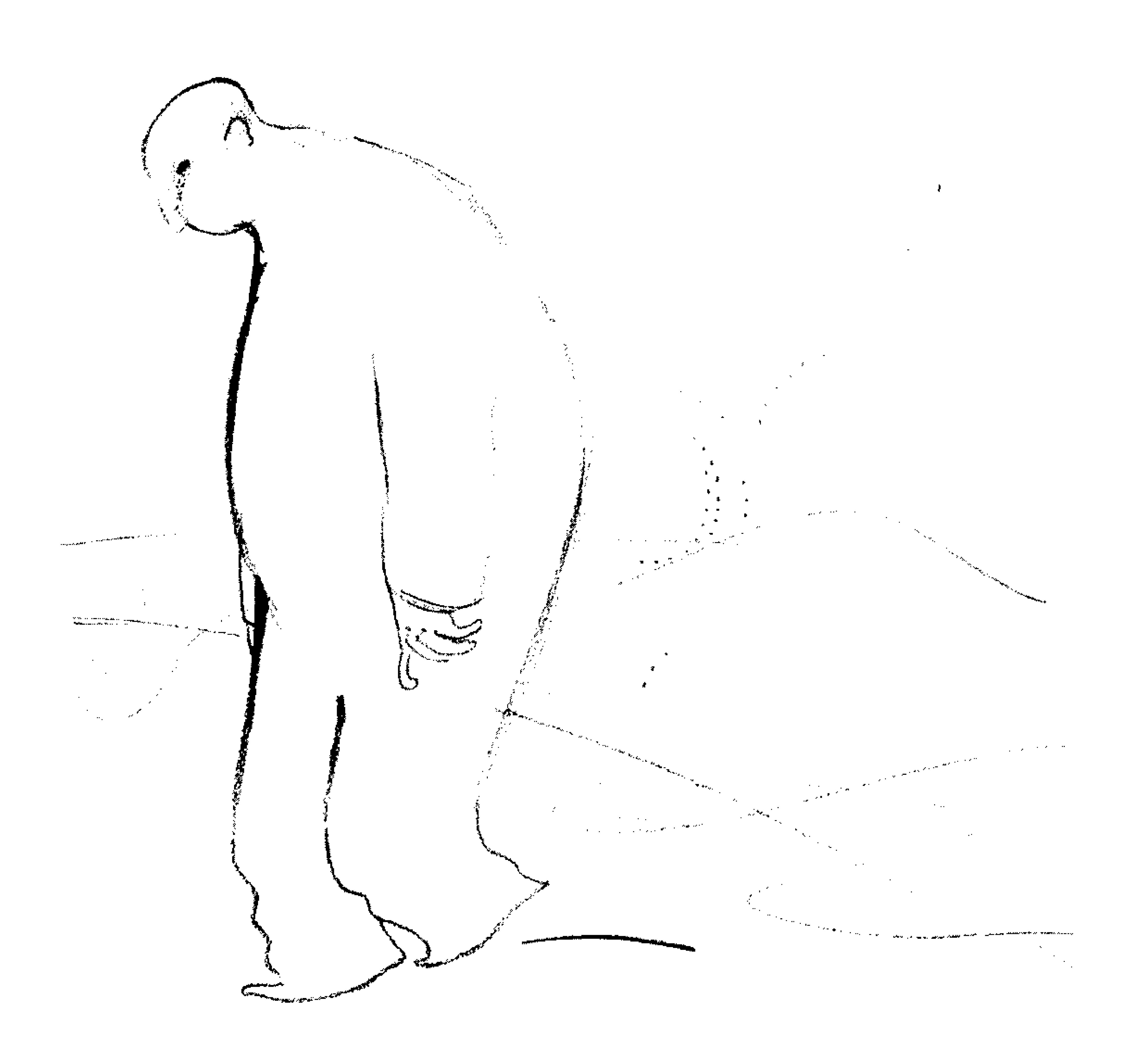
وكنا الآن نقف فى باب الحديد تسبقنا عربات كثيرة تقف كلها فى الإشارة وهى تضىء آلافا من الأنوار الصغيرة الحمراء. فقلت متنهدًا وأنا أنظر من النافذة:

ـ لو يرجع الزمان.

فقال السائق بصوت متعب وهو يمسح جبينه بيده ويسند ذراعه الأخرى إلى المقعد:

ـ من يذهب لا يرجع يا أفندى. ولكن...

أطلال البحر



سار محاذيًا للبحر يبحث عن مدينته.

سار ببطء مثبتا نظره على بحره. هو هناك، أزرق كالعادة، الشمس حامية، ولكن النسيم رقيق كالعادة.

الأمواج تجرى نحو الشط، كالعادة. تأتى من البعد فى أجنحة فضية، رقيقة وصغيرة مرفرفة نحو البر، تريد أن تحلق. تلطم الصخر الراسخ لكنها لا تحلّق بعيدًا. تتفتت مطرًا شفافًا، يهطل من جديد فى أحضان البحر ـ ثم تعود لتحاول التحليق من جديد.

ظل يتابع حوار الماء والصخر كما تابعه طول عمره. وكان البحر يشتت فكره الذى يريد الآن أن يستجمعه، أم هو العمر؟

قال لنفسه كبرنا. كبرت. ثم توقف وفكر: لم أخادع نفسى؟ أنا شخت. كبرت كلمة صغيرة. يمكن أن تكون جيدة. شخت هى الحقيقة، فلا تكابر ولا تعاند.

سار بساقين متعبتين نحو الخليج. نحو حدوة الحصان الكبيرة التى يرتاح فى حضنها البحر ويهدأ. أعزّ مكان له فى هذه الدنيا.

مع ذلك لا تواتيه الآن كلمات الحب الرقيقة التى قالها والتى سمعها. أول صورة تطرأ على باله وجهها الجميل، وقد حوّره الغضب

وهى تقول: «لا تؤلف أعذارًا. إن كنت تريد أن نتنهى فلننته بسرعة، ولكن أرجوك لا تؤلف أعذارًا!».

لماذا تطفو الآن هذه العبارة دون كل العبارات الأفضل والأجمل؟ لم يكـن شجـارًا مهمّا فيما يذكر. لم يحدث بينهما أى شجار مهم فلماذا تظهر هذه الجملة وهو يمشى الآن بصعوبة لكى يلتقى بأيام الفـرح؟ وكيـف ردّ عليها وقتها؟ هل قال أنا لا أؤلف شيئا؟ هل قال لها مع السلامة مادام هذا رأيك؟ هل سكت؟ هل قال لها أنا أحبك؟

ابتسم لنفسه.. ربما هذا هو ما كان ينبغى أن يقوله: «أنا أحبك» كانت ستنسى كل الغضب.. هى، كانت تكفيها تلك الكلمة، وهو كان سيقولها من قلبه.

تساءل: هل أحبها أكثر من زوجته التى رحلت منذ سنين والتى ظل يبكيها طويلا؟ ما المقصود؟ الحب العنيف الذى عاشه فى أيام الزواج الأولى، أم تلك الصداقة المتقلبة التى استمرت بينهما بقية العمر مع العشرة والأولاد؟ لا وقت للكذب. فلماذا يتحامل إذن على ساقين عجوزين مرهقتين ليعيش لحظة مما كان؟

وهل كانت هى التى استدرجته أم هو الذى استدرجها؟

كانت هى المطلقة الجميلة فى مكتب الشركة. فارعة الطول، تنير وجهها المدور بسمة جاهزة باستمرار على شفتيها تكشف سنتيها العلويتين المفلوجتين. حين تبتسم يكون لها وجه طفلة مرحة، لكن النظرة الصريحة المستقيمة فى عينيها السوداوين النفّاذتين كانت تربك من يتجاوز حده معها من زملائها. يئس منها الجميع بعد حين.

أما هو فلم يحاول شيئا. كان يخاف منها ويخاف من نفسه. يحاول باستمرار أن يتجنّبها.

يهرب من تلك الابتسامة التى لا تكاد تبين، والتى يلمحها كلما مر أمام مكتبها. ترفع وجهها وتتطلع له بنظرة ثابتة لا تهتز.

لا تلتفت إلى يمين أو يسار. لا تتشاغل بالنظر إلى أوراق على مكتبها. هو الذى كان يفعل ذلك حين تدخل مكتبه لأنه كان الرئيس. لم يكن وقتها رئيسا كبيرًا فى الشركة، ولكنه رئيسها هى على أى حال. تعمّد حين تدخل مكتبه أن ينهمك فى قراءة الأوراق قبل أن يوقعها. يسأل بصوت محايد عن أخبار العمل. يذكرها بأشياء ينبغى أن تستكملها. ومع ذلك يدق قلبه كثيرًا ويخشى أن يفتضح. ينهى المقابلة بسرعة، وبعد أن تخرج من مكتبه يتنهد فى ارتياح. يفكر فى زوجته، فى أولاده، فى سمعته. لا! مستحيل! نجونا هذه المرة أيضا!

توقف لحظة وقال لنفسه مرة أخرى: لا وقت للكذب. ألم يكن فخا منصوبا لها؟ هذا الانزواء والتهرب والبعد؟ ألم يكن يريدها بهذا كله أن تحدس ما يشعر به؟ لم يعد هناك وقت لكى تكذب على نفسك.

ظل واقفا لحظة فى مكانه ينظر للبحر. ذلك هو ما بقى له. الموج الذى يأتى ويذهب. الزبد الذى يمكث فى البحر ويتشكل أمام عينيه بلا انقطاع أجنحة وأسماكًا وحيتانًا فضية لامعة، وحين يرتدّ عن الصخر فقاقيع ورذاذًا يترك زهورًا بيضاء كثيرة فى حديقة البحر.

ذلك ما بقى له، ورائحة البحر التى أحبها عمره كله. راح يستنشقها

بعمق ولذة. تلك الرائحة الحريفة التى تحرمه القاهرة منها. فقط لو يختفى ذلك الألم فى الساقين! كان كل شىء سيصبح جميلا. لم تنفع الحبوب التى أعطاها له الطبيب آخر مرة. هل يجلس قليلا ليرتاح؟ لا يفهمون كثيرًا هؤلاء الأطباء.. يتقاضون أجورًا فاحشة ولا يفعلون شيئا.

أنّب نفسه مرة أخرى: ولكن ماذا كنت تريد من الطبيب أن يفعل؟ أن يردّ لك الشباب ربما؟ قد يكون السبب فى السكّر الذى فاجأه أخيرًا. الذى أضيف إلى ضغط الدم ودهون الدم وكل شىء آخر. ذلك الوخز الحاد فى الساقين قرب القدمين، يبدأ كدبيب النمل ثم يصبح جمرا. يأتى ثم يختفى. أو فى الحقيقة يأتى ثم يبقى، لكنه أحيانا ينساه. الآن صعب أن ينسى. ربما لأنه سار كثيرًا من الفندق لكى يصل إلى هذا المكان. ذكريات يا أفندم! أية ذكريات يا أستاذ وأنت نفسك أصبحت ذكرى؟ حفيدته سميّة الشقية تسأله من أيام: لماذا يا جدى تلبس النظارة وتأكل بطاقم الأسنان؟ يرد عليها بصوت متهدج لكى تضحك: لأنى عجوووز! تضحك سمية بالفعل وتقول: عجوز جدًا! جدو جدًا عجوز جدًا.تعلمت أخيرًا كلمة (جدًا) وأصبحت تضعها فى كل عبارة. تسأل ساعة الأكل: ممكن بطاطس جدا؟ أو تعانق أمها وتقول: أنت ماما جدا. ولكن فى هذه المرة لم تخطئ. بالفعل: جدّو جدا عجوز جدا.

جلس على المقعد الحجرى مواجها البحر وهو يكزّ على طاقم أسنانه من الألم. لو يتوقف الآن ذلك الوخز فى رجله. ولماذا فى الاثنتين دفعة واحدة؟ لماذا لا يكون فى رجل واحدة،

هل هى الشرايين؟ الأعصاب؟ العضلات؟ لا، إلا هذا! لم تبق أية عضلات!

غير مهم. ولكن لماذا ترك الآن غرفته وهو يرى منها البحر حتى وهو راقد فى سريره؟ ولماذا يأتى إلى الإسكندرية فى الأصل وهو متعب إلى هذا الحد؟ فهمنا، تحب البحر، إذن اجلس فى الشرفة وانظر إليه، يكفى هذا ويزيد.

ولكن ألم نتفق على أنه لم يبق وقت للكذب؟

ثم إنه فى الحقيقة قد فعل ذلك. جلس ساعات فى الشرفة يراقب البحر الذى فتنه. بحره الذى لا يكفّ عن التشكل والتلوّن بأمواجه وأصواته. كان فى شبابه يدّخر أو يقترض لكى يأتى إلى هنا. يخفق قلبه وهو يرتقى الطريق الصاعد من شارع الترام عند شاطئ ستانلى. ينتعش صدره بالرائحة الآتية من بعيد ويفرح. وعند نقطة معينة فى صعوده، فجأة، يهل البحر. فجأة تنبسط الزرقة اللانهائية أمام عينيه بكل جلالها، ينحدر خفيفا فى منحنى الطريق الهابط، خفيفا كأنه يطير نحو البحر. تتشكل بالتدريج حدوة الحصان ويرى الخليج الأزرق ومن خلفه تلتقى السماء الناعمة الزرقة بالبحر الغامق الزرقة: نعمة مكتملة!

نعم، كان يعشق هذا الخليج من قبل أن يعرفها، ومن بعدها صار محور دنياه. يحج إليه كلما زار مدينته وبحره.

نعم، ربما يكون قد نصب لها فخا بابتعاده عنها، ولكن الحقيقة ـ دون كذب ـ هى أنه قد قاوم طويلا. كان يعرف نفسه. يذكر دائما كلمة صديق عمره محمود ـ الذى رحل أيضا منذ سنين. قال له منذ

كانا طالبين فى الجامعة: يا ابنى أنت تحب من نظرة ومن ضحكة ومن كلمة سلام عليكم؟ تحب بدون سبب على الإطلاق؟ حاسب على نفسك. ستتعب فى الدنيا.

لم يستطع مع ذلك أن يعمل بنصيحة محمود. ظل طول عمره يخرج من قصة حب فاشلة ليدخل فى عذاب حب جديد. حتى قبل خروجه إلى المعاش أراد أن يتزوج سكرتيرته. لم يمنعه بكاء زوجته ولا تهديد أولاده بمقاطعته بقية العمر ولا نصائح محمود العاقلة.

ما أنقذه هو أن السكرتيرة فضلت عليه فى اللحظة الأخيرة منحة دراسية للسفر إلى أمريكا. الآن يحمد الله لذلك. يعرف أن السكرتيرة لم تكن حبًا، وإنما كانت تشبثا بالعمر الهارب. لا يذكر الآن وجهها، وبصعوبة يذكر اسمها الغريب ـ ماهيتاب. ولكن هل هو نادم على ما فعله بعمره؟ الآن والنهاية تقترب أى الكفتين ترجح؟ العذاب أم الفرحة؟

ياه! لكم كانت الحياة تصبح جرداء لولا ذلك الندى! ذكراه واحة فى صحراء العمر. وإلا فما الذى جاء به الآن متحاملا على ساقين موجوعتين؟ يعرف أنه وإن سخر من نفسه ومن سنه، فهو يجىء الآن كما جاء كل عام لأن صورتها تستدعيه مثلما استدعته من قبل.

كان قد سألها وهى تقف أمامه فى المكتب، تتطلع نحوه بتلك النظرة الثابتة والنظرة المراوغة، سألها فى ضراعة، فى يأس، متمنيا أن يسمع أى جواب يخلصه من صورتها، من وجهها المدور، ومن عينيها السوداوين تطلان عليه فى البيت وفى المكتب وفى الطريق،

سألها بهدوء وهو يواجهها بعينيه لأول مرة: ماذا تريدين منى يا نوال؟ فردت بهدوء أشد: أنت! سألها متحيرًا: ولكن لماذا؟ فردّت بالهدوء نفسه: لأنك تخصّنى.

هذا، ثم فتحت أبواب النعيم.

فيما بعد، وهما وحدهما، قال لها ظللت طول عمرى أطارد الحب وأفشل، فلماذا أنت هذه المرة التى طاردتنى؟

قالت وهى تضع يدها على كتفه: تعنى لأنك لست جميلا ولست غنيا ولست حرا ولكنك رجل امرأة أخرى؟

ـ بالضبط. هذا وأكثر. ولأنك جميلة جدًا، فلماذا أنا؟ ضحكت وهى تجيبه: ألم أقل لك إنك تخصّنى؟ ألا تصدق أنه فى هذه الدنيا هناك واحد بالذات لكل واحدة، وواحدة لكل واحد؟ ألا تصدق فى الحب، ذلك الحب القديم؟ عندما رأيتك عرفت أنه أنت.

ثم أكملت متظاهرة بالاستسلام: قدرى أن تكون أنت فماذا أفعل؟

ثم جذبته إليها ودفعت نفسها فى حضنه وقبلته قبلة حقيقية. وكان هو يعرف القبلات، يعرف طعمها، القبلات الحييّة والودودة، والقبلات البريئة والقبلات الكاذبة والقبلات التى هى شهوة لا غير. نوال وحدها هى التى أعطته القبلة الحقيقية. القبلة التى تنفذ من الشفاه والفم إلى الروح والجسد التى تجعل من اثنين واحدًا، القبلة التى تسرى فى الدم فتبقى هناك.

أعطته ذلك وأكثر منه. علّمته حبًا لم يعرفه إلا معها. كيف يصبح

بالفعل هو الذى يخصها وهى التى تخصه. كيف يكون فى داخلها وتكون فى داخله واحدًا لا ينفصم. يريان كل شىء معا ويعيشان كل شىء معا. أصبح دون أن يدرى يحب الطعام الذى تفضله هى، وصارت هى تعشق ألوانه التى يحبها. وحين كانت تسمع الموسيقى وتستغرق فيها كعادتها، بكل كيانها، كانت موسيقاها تنساب فى سمعه وفى قلبه حين يمسك يدها وحين يضمها إليه.

أعطته كل شىء فماذا أعطاها؟

الحب المختلس فى القاهرة؟ الإسكندرية فى آخر الشتاء وفى آخر الصيف؟ الإسكندرية حين تكون خالية من الزحام وجميلة؟ هى لم تطلب أكثر من ذلك.

كانت تبدو سعيدة وهما يجلسان هناك فى ذلك المقهى الداخل فى البحر، وحدهما تقريبا. يجفلان حين يدخل المقهى أحد، كأنه اقتحم بيتهما. لم يقبلا معهما ثالثا سوى البحر. المياه الناعمة المجلوّة الزرقة فى الأيام الصحوة، والبحر الرمادى المتجهم فى الشتاء الذى تهجم أمواجه عبر زجاج المقهى، أشرعة جبارة بيضاء تندفع نحو السماء ثم تتمزق وتختفى فى سحابات من بخار. البحر كله، أيا كان حاله، غاضبا أو راضيا، يدخل فيهما، يجلس معهما، يستمع إليهما. ذلك البحر الحنون، بحرهما.

وكانا هناك، يرقبانه وهو أعراف خيول جامحة تطارد بعضها البعض، حين ابتسمت وقالت له: هل تعرف متى أدركت أنى أحبك؟ متى عرفت أنه هو أنت وليس غيرك؟ ذات مرة رأيتك فى المكتب

وقد اغرورقت عيناك بالدمع وارتعشت شفتاك فشعرت بالخجل وحاولت أن تخفى وجهك. لا أذكر السبب فى ذلك ولكن حزنك كان حقيقيا.

سألها محبطا: أحببتنى بسبب الحزن؟ الحب يكون للفرح. قالت: ويكون للحقيقة. أعرف أنك لا تكذب حين تحبنى ولا أنا أكذب.

والآن وهو يجلس على المقعد الحجرى فى الشمس كانت هى أيضا معه والبحر. تأتى الأصوات والصور ومعها شجن شفيف يسرى فى جلده. شجن كأنه اللذة، يتغلغل فى دمه ويخدره، ينسيه حتى الألم.

لو أنه كان يكتب مذكراته لعاد إليها ولقرأها كل يوم ليعيش من جديد لحظات الحقيقة تلك. لكنه لم يكتب. يجهد ذهنه ليتذكر تفاصيل ما كان لكنه ينسى. يوما بعد يوم ينسى أكثر. هل سيأتى وقت ينسى فيه كل شىء؟ حتى نوال! فماذا يبقى؟ الأفضل أن يرحل قبل ذلك.

يجب أن يسجل ما يذكره قبل أن ينساه. قبل أن تهرب نوال مرة أخرى كما هربت من قبل.

تحمس للفكرة وراح يفكر من أين يبدأ؟ أخذ يحدق أمامه فاجتذبه البحر من جديد. غاص فى الزرقة اللامعة ودمدمة الأمواج، وحين استطاع أن يسترد نفسه تنهد فى ارتياح. كان الوخز فى ساقيه قد خف بالفعل، ولكنه خشى إن قام ومشى أن يعاوده الألم من جديد، فظل فى مكانه.

أقبلت نحوه امرأتان سمينتان تلبسان ثيابًا سوداء من قمة الرأس وحتى القدم. قالت إحداهما بصوت مرتفع يكاد يكون أمرًا:

ـ وسّع يا حاج.

كان المقعد واسعا بما فيه الكفاية، لكنه تزحزح حتى طرفه، فجلستا إلى جواره، وأكملت المرأة التى خاطبته حديثها لصاحبتها:

ـ قلت لها إياك! إلا المصاغ. لو أخذه اليوم فمن يضمن؟

سألت الأخرى: ولكن هل عنده عقد عمل؟

فردت الأخرى: لا. هو يريد أن يسافر فى العمرة ثم يبحث عن عمل.

ضحكت صاحبتها هازئة وهى تقول: كان غيره أشطر!

قالت الأولى بحماس: وحتى يا أختى لو فرضنا واشتغل .. من يضمن؟ ربما لو جرى القرش فى يده يتزوج عليها. أصل المصاغ للواحدة....

قام وسار بحذر نحو حاجز (الكورنيش) المعدنى. كان الشاطئ مزدحما بأطفال يلعبون وسط رمال تتكدس فيها أوراق مهملة مسوّدة وعلب وزجاجات بلاستيكية فارغة. تساءل: من يستطيع أن يجمع الأصداف وسط هذه القمامة؟ مد بصره نحو البحر فوجد نسوة يسبحن بجلابيبهن الكاملة. كانت الجلابيب تلتصق بأجسادهن وينتفخ جزؤها السفلى بالهواء فيطفو فوق الماء. يحاولن دفع تلك الانتفاخات بيد واحدة فتطفو على الفور من الناحية الأخرى ويستمر الخبط بالأيدى من الناحيتين.

ماله وذاك؟ مد بصره أبعد، وأصم أذنيه عن صراخ الأطفال الذين يلعبون فـوق الرمال المتسخة. ماله وذاك؟ رأى من جديد بحره الأزرق الممتد حتى السماء ورأى عند خط الأفق باخرة مسمرة فى مكانها.

قال لنفسه: لم يخطئ الشعراء الذين وقفوا على الأطلال. ربما حين تنهار الديار يصبح أصلها فى الذهن أجمل مما كان فى الحقيقة، أو ربما كان الأمر عكس ذلك بالضبط. ربما يبعث الضياع صورة الجمال القديم الذى كانت العين غافلة عنه والأصل قائم. ما الذى يعنيه الحنين على أى حال؟ هل هو يد ممدودة تقاوم زحف الزمن؟ يد ضارعة تتشبث بالحياة؟ هل يأتى إلى هذا المكان كل عام ليقول أنا مازلت أحيا؟ هو فقط يأتى ويحوم حول الخليج. يسير حول مقهاه القديم، ولا يدخله.

حين غامر وعاد إليه قبل سنتين أوشك أن يبكى.. أصابه الفزع. وجد مكان الموائد الخشبية البسيطة بمفارشها النظيفة موائد ثقيلة من خشب سميك تحوطها مقاعد جلدية حمراء بشعة، ووجد حول الجدران تشكيلات من نحاس مذهب ربما أرادوا بها أن تكون زخارف لأسماك، ولكنه رآها أسلاكا شائكة تمنع أى جمال من دخول المكان. كان مقهاه قاربا صغيرًا يطفو على الموج فيصبح جزءًا من البحر، وكان هذا المقهى الجديد قلعة راسخة للقبح تخرج لسانا بذيئا متحديا للبحر. بدلاً من عم إبراهيم العجوز الذى كان يحنو ببسمته الودودة على المحبين، حاصره بمجرد أن دخل المكان جرسونات متجهمون متأنقون، يلبسون سترات ضيقة صفراء و (بابيونات) سوداء (لماذا؟) حاصروه بنظرات بقشيشية افتراسية. ولم تجد نظراتهم مع

ذلك شيئا. فحين جاء وقت الدفع. ولم يكن قد أخذ شيئا غير فنجان من الشاى تساءل إن كان ما معه يكفى ليسدد الحساب. رد الجرسون على نظرته الفزعة المتسائلة بالانجليزية الفصحى «مينيمام تشارج». وحين ظل ينظر له فى ذهول ظن أنه لم يفهم فقال «حد أدنى».

لم يفكر بعدها أن يكرر التجربة أبدًا. ولماذا يفعل؟ لم يجد فى ذلك المقهى المشوه طيف نوال. لم يجد عطرها.

عطرها يأتيه الآن من البحر وحده.

تعب من الوقوف ومن ضجة الأطفال على الشاطئ، التفت برأسه للوراء فوجد مقعده خاليا. انصرفت المرأتان إذن والمصاغ وعقد العمل ويمكنه أن يعود إلى مكانه. رجع بخطى بطيئة وجلس فى طرف المقعد ليتركه واسعا لمن يشاء ولكى يتركوه فى حاله. تساءل: فيم كان يفكر قبل ذلك؟ نعم، أن يكتب حكايته مع نوال.. يسجلها قبل أن ينسى كل شىء. ولكن ما أقل ما يذكره الآن بالفعل!

هو يذكر جوًا ما، سعادة ما، أما التفاصيل فقد غابت. يذكر يوما قال لها بطريقة عابرة: معك يا نوال أشعر أنى مطمئن. لم أعرف مثل هذه الطمأنينة فى حياتى.

فأشرق وجهها ببسمة صافية وقالت: هذا أجمل غزل سمعته فى حياتى. ما أجمل السكينة فى الحب!

ولم يكن يكذب. كان هدوء ونعمة يغمران وجوده. لم تكن هناك حقيقة سواها، ومع ذلك كانت الحياة ممتلئة وراضية. فى المكتب كان يعمل أكثر وأفضل، وجاءته أيامها ترقيات فى الشركة. حتى

علاقته بزوجته كانت فى أحسن أيامها. كفت المشاحنات والغيرة. لم تعد تسأله عن سبب تأخره فى الليل. كانت فى معظم الأحيان تستطيع أن تتصل به فى المكتب وأن تجده هناك. لم تعد تستغرب أسفاره المتكررة للإسكندرية للعمل. كانت تجد زوجا وصديقا لم تعرفه بمثل هذا الصفاء والود من قبل.

هل كان يخدعها، يلعب دور الزوج الخائن الذى يجامل زوجته حرصا على بيته؟ أبدا. هو لم يفتعل أى شىء. هو، فقط، كان يعيش فى سكينة الحب. بالعكس، جاء الجنون والخصام وتهديد الطلاق بعد أن انتهى ما بينه وبين نوال. بعد أن انفرط انسجام الكون من حوله. بعد أن رحلت السكينة وعادت فوضى الحياة ووجهها الآخر الذى كان يخفيه وجه نوال ويد نوال. تكسرت الأجنحة فهوى للأرض.

لو طلبت نوال منه مرة أيامها أن يتزوجها لما تردد. ولكن الحقيقة هى أنها لم تطلب شيئا أبدًا. وبدا له أنها تكره الزواج. حدثته مرة واحدة عن زوجها السابق. قالت بمرارة إنه كان يكره أن تسمع الموسيقى، وكان يسخر منها ويسميها باستهزاء «المثقفة»! قالت إنه كان رقيقا وحساسا قبل الزواج وإنها لا تدرى ما الذى يقتله الزواج فى الرجال بالضبط. ولكنها فى غير هذه المرة لم تتحدث عنه ولم يفهم منها سبب الانفصال.

ربما كان ينبغى عليه هو أن يصر على الزواج. ربما كانت تريد وإن لم تطلب. ولكن كيف كان له أن يحدس؟ كانت تبدو سعيدة معه طول الوقت. يذكر ما كانت تقوله: معك أشعر أنى أذكى من حقيقتى

وأننى أجمل. معك لا أحتاج إلى سواك، لا إلى بشر ولا إلى أشياء.

ولم يدرك هو معنى ذلك إلا عندما انتهى كل شىء. أدرك كم كان يحتاج إليها ليحتمل الحياة، التى كانت والتى ستأتى، تلك البقية الكاذبة المملوءة بالمواعيد وبرنين التليفون وبالزواج وبالغرام العابر وبأوراق المكتب التى ظلت تتكدس أمامه بلا نهاية. تلك البقية العابرة بدونها.

هل كانت تعنى ذلك أيضا؟ كيف كان له أن يعرف؟

وإذا ما كتب قصتهما معا فهل يسجل ذلك اللقاء الأخير؟ وما الذى يذكره منه غير الدموع وغير سؤاله المتكرر:

ـ هل تحبينه؟

وذلك السؤال الذى ردت به: هل تحب زوجتك؟

قال: لا أكرهها فكررت وراءه: وأنا لا أكرهه.

أما الكلام الآخر، ذلك الكلام الكثير الذى قالته عن حبهما والزمن، عن أنهما عاشا معا كل الحب المقدر لهما، وأن كلا منهما سيبقى فى الآخر إلى الأبد، أما ذلك الكلام فلا يذكر منه إلا القليل.

ولكن على الأقل هى لم تكذب. بقيت بالفعل فى داخله إلى الأبد. ومع ذلك فلم يكن هذا هو اللقاء الأخير. رآها بعده بعشر سنين أو أكثر أو أقل. حين وقفت أمامه فى الطريق، حين واجهته بالبسمة وبتلك النظرة الثابتة كما كان الحال فى الزمن القديم. جميلة ظلت كما كانت. لم تتغيَّر. فى عينيه لم تتغير.

قالت:سلّمى على عمّو يا سلوى.

وانحنى هو يقبل نوال الطفلة ذات الثوب الأبيض والجورب الطويل الأبيض.

وقف صامتا لفترة ثم سألها: رجعت إلى مصر؟

هزت رأسها بالنفى وقالت: إجازة.

مدت يدها تصافحه وقالت: سلام. فقال: سلام.

ولكن ذلك لم يكن لقاء. لم يكن أيضا وداعا. لم تكن هى نوال ولم يكن هو نفسه. لم يكن هناك البحر ولا المقهى ولا الخليج المدور ولا الموسيقى ولا السكينة ولا الغضب. لم يكن هناك شىء. فهل يسجل أيضا تلك اللحظة العابرة على الرصيف؟

ظل لحظة شاردًا لا يفكر فى شىء. كان أناس يأتون ويجلسون إلى جواره فلا يسمع ما يقولون.. ربما يكون أحدهم قد سأله عن الساعة. ربما يكون قد أراد السؤال مدخلا لحواره معه، ولكنه لم يكن راغبا فى أن يسمع أو يتكلم. فلماذا انتبه إذن إلى هذين الرجلين اللذين جلسا إلى جواره دون أن يلتفتا إليه؟ كان أحدهما يهز ساقه التى تجاوره فى عصبية شديدة. هل تؤلمه الساق هو أيضا؟ هل بدأ فيها دبيب كالذى عاد للتوّ قرب قدميه؟

سمعه يقول وكأنه يبكى: خرب بيتى! فقال صاحبه بلهجة مواسية: لا تظلمه. ربما لا يكون هو السبب. كيف يفعلها وهو شريكك؟

ردّ الذى يهز ساقه: فى هذا الزمن لا تخاف إلا من شريكك. أصله....

قام العجوز وأعطى ظهره للبحر. شعر بغضب يصعد كغصة فى حلقه. قال لنفسه وهو يبتعد: لا يعنينى زمانكم الذى تخاف فيه من شريكك. زمانكم لا يخصنى والحمد لله! لا يعنينى مصاغكم ولا شركاؤكم ولا جرسوناتكم بستراتهم الصفراء، ولا المينيمام تشارج ولا رجالكم ولا نساؤكم اللائى يسبحن فى البحر بجلابيبهن. كم أنا فرح لأنى رأيت عالما غير عالمكم! كم أنا فرح لأنى عشت فى زمن آخر! كم أنا فرح لأنى عرفت نوال ولأنى أذكر مكان عمائركم الشائهة تلك التى يلفظها البحر بيوتا صغيرة جميلة يحنو عليها البحر وتحنو عليه. كم أنا فرح لأن زمنكم لا يخصنى! أنا ماشى!.

وقف على حافة الرصيف وكان يعرف أن العبور للناحية الأخرى محنة، لأن السيارات إن توقفت من أحد الاتجاهين فهى لا تنقطع من الاتجاه الآخر، لكنه كان غاضبا، نافد الصبر، يريد أن يعود إلى الفندق بسرعة ليتعاطى ذلك المسكن الذى يوقف الألم فى رجليه.

انتهز لحظة رأى فيها الطريق خاليا من الاتجاهين ونزل من على الرصيف ولكنه سمع الصيحة قبل أن يسمع (فرملة) السيارة:

ـ حاسب يا أعمى!

تراجع متخبطا نحو الرصيف فتعثر وسقط. جاهد لكى يقوم فوجد يدًا تسنده. كانت يد شاب مذعور يقف إلى جوار باب السيارة المفتوح. قال له:

ـ حقك علىّ يا جدى. سامحنى. أنا أصلى خفت عليك.

هل حدث لك شىء؟

قال بصعوبة: لا. لم يحدث شيء. فقط ساعدنى من فضلك.

سنده الشاب حتى وقف على قدميه. تجاوز المقعد الحجرى ووصل حتى الحاجز المعدنى فأمسك به بيديه وهو يعض على شفتيه من الألم.

كان دبيب النمل فى قدميه يتحول بسرعة إلى لسع النحل. أراد أن يصرخ، ولكنه همس وهو ينظر أمامه مخاطبا البحر الأزرق:

ـ ساعدنى يا صديقى. ساعدينى يا نوال!

ولكن دموعًا نزلت من عينيه، فلم يعد يرى البحر.

صدر للكاتب

١ـ الخطوبة	مجموعة قصصية	١٩٧٢
٢ـ بالأمس حلمت بك	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٣ـ أنا الملك جئت	مجموعة قصصية	١٩٨٥
٤ـ ذهبت إلى شلال	مجموعة قصصية	١٩٩٨
٥ـ لم أعرف أن الطواويس تطير	مجموعة قصصية	٢٠٠٩
٦ ـ شرق النخيل	رواية	١٩٨٥
٧ـ قالت ضحى	رواية	١٩٨٥
٨ ـ خالتى صفية والدير	رواية	١٩٩١
٩ ـ الحب فى المنفى	رواية	١٩٩٥
١٠ـ نقطة النور	رواية	٢٠٠١
١١ـ واحة الغروب	رواية	٢٠٠٦
١٢ـ ١٠ مسرحيات مصرية	نقد	١٩٨٥
١٣ـ فى مديح الرواية	نقد	٢٠٠٤
١٤ـ أبناء رفاعة: الثقافة والحرية	فكر	١٩٩٠
١٥ـ فاصل غريب (ترجمة لمسرحية يوجين أونيل)	ترجمة	١٩٧٠
١٦ـ ساحر الصحراء (ترجمة رواية الخيميائى)	ترجمة	١٩٩٦